أدب السجون في العصر العباسي

مي أحمد يوسف

قسم اللغة العربية، جامعة اليرموك، إربد . الأردن

تاريخ استلام البحث: ١٩٩٣/٩/٥ تاريخ قبوله للنشر: ١٩٩٤/٨/١٠

ABSTRACT

This paper deals with literary texts (in prose and poetry), on the subject of "Literature of Imprisonment", during the Abbaside Period. Such texts reveal a great deal of pain, horror and sufferings, the imprisoned had gone through, physically and psychologically.

This discussion in the paper shows that "Literature of Imprisonment" in that period, can be grouped in thee groups:

1. Exchange of letters (written or verbal):
   a. Letters from the Imprisoned to the one who ordered his imprisonment, asking him forgiveness and mercy.
   b. Letters from the imprisoned to a friend describing the pain he is suffering.
   c. Letters from a friend to the imprisoned conforting him on his ordeal.
2. A debate between the imprisoned and the one - in - power who ordered his imprisonment. The debate usually takes the form of a dialogue between the two. In many cases, the imprisoned fascinates his opponent by his eloquence, and succeeds in convincing him to order his release, after being very close to death.
3. Soliloquies, in which the imprisoned speaks his thoughts and feelings while he is lonely in his cell, tight with chains and darkness.

Many texts, however, take the form of historic documents, since it is linked with historic events.

ملخص

يتعامل هذا البحث مع نصوص (شعرية ونثرية) في موضوع «أدب السجون» في العصر العباسي، الذي يكشف عن مكنون عالم السجين، بكل ما فيه من ويلات وأهوال ومعاناة وما خلفه السجن من تأثير على من ابتلي به آنذاك: نفسياً وجسدياً. وهذا الأدب متنوع الأغراض: ففيه استعطاف، وإقرار بالذنب وإظهار الندم، وعتاب، وبخاصة للأصدقاء، وفيه تأمل ومناجاة للنفس.

وقد وجد أن نصوص «أدب السجون» تقع في أقسام ثلاثة.

- المراسلات (مكتوبة وشفوية) : وهي تلك الصادرة عن السجن أو الواردة إليه. والصادرة عنه: إما أن تكون إلى صاحب السلطة الذي أودعه السجن، ويطلب منه العفو والرحمة، وإما إلى صديق يعاتبه، ويبثه ألمه وحزنه.

والواردة إليه: تكون غالبا من الأصدقاء، وفي معظمها تكون مواساة وتخفيفاً عن المحبوس وحثاً له على التجمل بالصبر.

- المحاورات والمناظرات: وهي الكلام الذي يتبادله المحبوس مع من في يده أمره، ويدور الكلام هنا على شكل حوار. وفيه يواجه صاحب الأمر المحبوس بذنبه، وقد نشر النطع وسُلّ السيف، فيرد المحبوس هذه التهم عن نفسه مسترحماً، بكلام يودع فيه كل ما لديه من بلاغة وقوة إقناع، وكثيراً ما كان يؤدي هذا إلى العفو.
- الخواطر ومناجاة النفس : وهي تلك النصوص التي يبث فيها المحبوس ما كان يعتمل في نفسه من انفعالات، وما كان يدور في خلده من تأملات: في نفسه وحياته ودنياه، وهو وحيد في ظلمة السجن الحالكة، قد أثقلت يديه ورجليه القيود.

وكثير من نصوص هذا الأدب يتخذ صفة شبه تاريخية، لأنه مرتبط بحوادث سياسية ذات خطر آنذاك.

تمهيد:

العقاب، والسجن، والقتل والعفو: كلمات تتردد كثيراً في كتب التاريخ والأدب، بل تكاد هذه الكتب - في معظمها تتمحور حول هذه الكلمات، وبخاصة في معرض سردها للأحداث والوقائع عبر السنين والقرون. ومن يتصفح هذه الكتب، وبالذات: كتب تاريخ الحضارات والدول القديمة، حتى في أوج سلطتها، يجدها ملآى بأخبار أحداث ووقائع كانت تؤول في غالب الأحيان إلى ايقاع العقوبات بالمذنبين: إما حبساً أو قتلاً أو تعذيباً وتنكيلا، بغض النظر عن سبب العقوبة. وربما أفضت هذه الأحداث، في بعضها إلى العفو، إن كان للمتهم من العمر بقية.. فقارىء تاريخ الدولة الرومانية(١) والساسانية(٢) والبيزنطية - أيضا - يقع على أخبار مثل هذه العقوبات، وبخاصة على المتهمين بالخروج على السلطة آنذاك، وهي كثيرة جدا. وقد تفنن موقعوها بها، واستعانوا - من أجلها - بوسائل مختلفة، ليكون أثرها أكثر وقعاً. ومن هذه الوسائل: استصفاء الأموال والأملاك، وإيداع في السجن، ومن ثم حكمٌ بالأشغال الشاقة، أو تنكيل، إذا لم يكن القتل خاتمة المطاف. والدولة العباسية - التي هي موضوع هذا البحث من خلال أدب السجون فيها - ليست بدعاً بين تلك الدول، إذ انتشرت فيها ظاهرة السجون منذ بداياتها الأولى، وصاحب نشأتها ثورات(٣) وقلاقل وخروج على السلطة، وخيانات، وتبع ذلك كله حبس وتعذيب وقتل، وما إلى ذلك من صنوف العذاب وأنواع العقاب. واستمرت ظاهرة الحبس هذه عبر السنين والعقود، حتى كثرت في القرنين: الثاني والثالث الهجريين بشكل كبير ولشتى الأسباب(٤).

ومن عجائب القرن الثالث الهجري وغرائبه - مثلا - أن «الوزارة كانت سبيلا إلى السجن في غالب الأحيان، وندر من نجا من الوزراء ولم يُسجن، وربما قتل ولم يُحبس(٥)، وغدا السجن «سلاحا في يد السلطة الحاكمة، والمتنفذين، وقوة يكيدون بها للتخلص من أعدائهم ومناوئيهم»(٦). وأخبار السجون، وأخبار نزلاء السجون، احتلت جزءاً لا بأس به من كتب التاريخ والأخبار على حد سواء، حتى إن بعض هذه الكتب لم يكتف بالوصف المجرد لتلك الأحداث والوقائع، بل عمد إلى تسجيل ما كان يصدر عن تلك السجون، أو ما كان يأتي إليها من مراسلات: مكتوبة أو شفوية، شعرا أو نثرا، إلى جانب المحاورات والمناظرات التي كانت تدور بين المحبوس وصاحب السلطة: إن كان خليفة أو وزيرا أو أميرا أو صاحب شرطة. وقد لفتت انتباهنا تلك النصوص، وما فيها من توسلات كانت تصدر عن المتهمين إزاء أسيادهم، الأمر الذي دفعنا إلى أن نطلق على تلك المادة اصطلاح «أدب السجون».

أدب السجون:

يمكن أن يعرف بأنه تلك الآثار الأدبية التي تكشف عن مكنون عالم السجن، بكل ما فيه من ويلات وأهوال ومعاناة، وما خلفه ذلك من تأثير على من ابتلي به: نفسياً وجسدياً، ذلك أن

هذا الأدب قد خط و قيل بين جدران السجن القاتمة، وفي سراديبه المعتمة، أو ربما نطق به سجين أمام نطع قد نُشر، وسيف قد انتضي. أو ربما كتبه أحدهم في الاستتار، ذلك أن الاستتار كالسجن فيما يلحق بالمستتر من الخوف وتوقع القتل«٧»، مع كل طرقة باب، وفرقعة سوط! فلا يعود المستتر يأمن أخاه، أو يسكن إلى جاره، وتغدو حياته عبئا ثقيلا ويحيق به عذاب النفس وتضيق به الدنيا على اتساعها، حتى لا يرى مخرجا من كل هذا إلا باستعطاف وليّه واسترحام غريمه. فإما أن يؤخذ (بذنبه) إن كان له ذنب، وإما أن يُعفى عنه فيستريح. لهذا كله جاء أدب السجون هذا - شعره ونثره (٨) - متنوع الأغراض: فهو تارة أدب استعطاف ورجاء العفو، وتارة أخرى أدب إقرار بالذنب وإظهار الندم، أو هو أدب عتاب ولوم، وبخاصة لوم الأصدقاء، أو هو أدب تأمل ومناجاة للنفس والوجدان.

ويختلط بذلك كله شكوى من سوء الحال وقسوة السجن وألمه، ومعاناة النفس وهو أدب هام، يشكل جزءا لا بأس به من تراث الأدب العباسي. إلاّ أن الاهتمام بالأدب الرسمي، أو أدب الطبقات العليا(٩) كان سببا وراء اختفاء هذا الأدب خلف السطور. فكتب التاريخ اكتفت بذكر الوقائع والأحداث مجرده، دون الإشارة إلى ما أفرزته هذه الأحداث من أدب (انساني)(١٠)، باستثناء تاريخ الطبري، الذي أورد جزءا لا بأس به مما سنورده في هذه الورقة من نصوص هذا الأدب.

إلا أن هناك بعض الكتب المتأخرة في القرن الرابع الهجري بدأت تورد أخبار أناس، ممن اقترنت اسماؤهم بالدولة وشؤونها المختلفة: من وزراء وكتاب، وقواد وعمال أمصار، وهذه الأخبار كانت في معظمها أخبار سجن أو تنكيل أو قتل او عفو، من هذه الكتب: نشوار المحاضرة، والفرج بعد الشدة، والمستجاد من فعلات الأجواد للقاضي التنوخي. والوزراء والكتاب للجهشياري، وكتاب «المِحَن لأبي العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي. وقد وردت أخبار متناثرة في كتب كثيرة ظهرت بعد ذلك، أخذها مؤلفو هذه الكتب في معظمها عن الكتب التي ذكرت سابقاً(١١).

أما فيما يتعلق بفائدة أدب السجون، فإننا نزعم أنه لا يخلو من فوائد يقتنصها الدارس من خلال قراءة نصوصه، وهي التي أفرزتها بعض الأحداث والوقائع التي لا تخلو أن تكون ذات خطر آنذاك. من هذه الفوائد نذكر:

- أن هذا الأدب ربما كان مصدراً من مصادر المعرفة التوثيقية شبه التاريخية، فكل نص من نصوصه قيل أو خط في مناسبة ما، كانت سببا في إدخال صاحبه إلى السجن، وأغلب هذه المناسبات مرتبط بأحداث سياسية.

- والفائدة الأخرى، التي ربما أفاد منها القارىء، هي: أن هذه النصوص ربما كانت مصدرا من مصادر الحالات النفسية، التي يمكن أن تكون غرضا للدراسة النفسية. فكثير من هذه

النصوص يكشف عن الجانب الإنساني الضعيف، حتى عند ذاك الذي عُرفت عنه الشجاعة والقوة والقسوة، وبخاصة في الخواطر ومناجاة النفس(١٢).

وأما الفترة الزمنية التي تنتمي إليها معظم النصوص، فسيلاحظ أن معظمها قد تركز في القرن الثالث الهجري، وشطر من القرن الرابع الهجري، وهذه أخطر حقب التاريخ الإسلامية، إذ زخرت بالأحداث والتناقضات والسلبيات.

أمر آخر يجدر ذكره هنا، هو أن هذه النصوص قيل معظمها أو أنشىء في بغداد باعتبارها حاضرة الدولة العباسية، التي كانت غنية بالأحداث، جامعة للتناقضات وكذلك في سامراء، باعتبارها الحاضرة الثانية للدولة العباسية، منذ عهد المعتصم إلى عهد المعتمد. يضاف إلى ذلك، أنّ السجون المشهورة كانت قد بنيت فيهما لسجن المتهمين: من سياسيين وغير ذلك. وأشهر هذه السجون التي سجن فيها المشاهير ممن سنأتي على ذكرهم من أصحاب نصوص أدب السجون في هذه الورقة: سجن المُطْبِق(١٣) والجَوْسَق(١٤)، والحبس الكبير(١٥)، سجن الجديد. يضاف إليها ما كان يعرف بسجونَ الدور أو السراديب(١٦).

أقسام أدب السجون:

أشرنا - فيما سبق - إلى أن أدب السجون ورد في معظمه مزيجا من الشعر والنثر، وبناء عليه فإنه تقسيمه إلى لوني الأدب الرئيسيين: «الشعر والنثر» لا يمكن بحال، لذا ارتأينا أن نصنفه ضمن الأقسام التالية:

- المراسلات.
- المحاورات والمناظرات.
- الخواطر.

والمراسلات نوعان: مراسلات مكتوبة، ومراسلات شفوية.

أما المراسلات المكتوبة، فهي تلك الصادرة عن السجن أو الواردة إليه. نعني بذلك: ما بعث به المحبوس من رسائل إلى شخص خارجه. وهذا الشخص: إما أن يكون صاحب السلطة الذي أودعه فيه، يطلب منه العفو والرحمة بعد الإقرار بالذنب، أو بعد دفع التهمة عن نفسه، أو إلى صديق له يبثه ألمه وحزنه، ويطلب عونه في محنته. أو يعاتبه لتنكره له في محنته.

ونعني بالمراسلات الواردة إلى السجن: تلك التي كانت ترد إلى المحبوس من أشخاص خارج السجن، وفي غالبيتها رسائل مواساة وتعزية للمحبوس وتخفيف عنه، وحث له على التصبّر، وندر أن تكون قد صدرت عن صاحب سلطة إلى مسجون(١٧).

وأما المراسلات الشفوية، فهي تلك الرسائل التي يتبادلها المحبوس مشافهة، مع من أودعه السجن، إن كان خليفة أو أميرا أو عاملا، يبعث بها مع وسيط، بأن يقول له: قل لفلان، أو

يقول لك فلان، أو ربما قيل: بعث بالرد مع فلان. وكثيرا ما يكون الوسيط - أي من يحمل الرسالة الشفوية - قيّم السجن، أو صاحب البيت الذي ينزل المحبوس في قبوه(١٨). أو: ربما كان زائراً قدم ليزور صديقه السجين، فيحمله رسالة إلى صاحب السلطة ممن في يده أمره، يطلب عفوه أو يستعطفه أن يضع حداً لمعاناته، ويفك قيوده(١٩).

المحاورات والمناظرات:

ونعني بها: الكلام الذي يتبادله المحبوس مع من في يده أمره: من خليفة أو أمير أو قائد جيش، وما إلى ذلك. ويدور الكلام هنا على شكل حوار، وأغلبه قيل في مواجهات بين صاحب السلطة وبين المحبوس وهو مكبل، وقد نشر النطع وسُلّ السيف. خلال ذلك، يواجه صاحبُ الأمر سجينه بما اتهم به من خروج على السلطة، أو خيانة أو اختلاس، إلى غير ذلك. ثم يرد المحبوس هذه التهم عن نفسه مستعطفا مسترحما بكلام يودع فيه كل ما لديه من فصاحة وبيان وقوة اقناع، إن كان ممن يُحسن ذلك وكثيراً ما كان يؤدي هذا إلى أن يعفو صاحب الأمر عن سجينه اعجاباً ببلاغته(٢٠)، أو تقديراً لشجاعته، أو بعد أن يقتنع - صاحب الأمر هذا - بأن ظلما ما وقع على هذا المحبوس، فيأمر أن تفك قيوده: فإما أن يعاد المسجون إلى السجن(٢١)، وإما أن يخلع عليه(٢٢).

الخواطر ومناجاة النفس:

وهي تلك النصوص التي يبث فيها المحبوس ما كان يختلج في نفسه من انفعالات، وما كان يعتمل في فكره من موضوعات، وما كان يدور في خلده من تأملات: في نفسه وحياته ودنياه، وهو وحيد في ظلمة حالكة، قد أثقلت يديه ورجليه القيود، وأحنى منكبيه الحديد، بعيداً عن أهله وعياله، يرنو فلا يرى غير شبح الموت يلوح أمامه، ويرجو فلا فرج يفتح أبوابه، ويأمل فلا بصيص أمل يشق عليه ظلامه، فيخلد مرة أخرى إلى تأملاته، وينكفىء على نفسه يناجيها.

السجن والخوف من عقاب قد يؤدي إلى ظلماته احتلّ جزءاً كبيراً من تفكير البشر عبر العصور والأزمنة، وذلك عند ارتكاب ذنب، أو اتهام بارتكابه. ومثل ذلك كان الإنسان العربي عبر عصور التاريخ، وبخاصة في العصر العباسي. فقد نقلت لنا كتب تاريخ تلك الحقبة، كم كان السجن مآل الخارجين على الدولة، أو من كان يتهم بذلك، وكم كان السجن نهاية المطاف للمتهمين بالخيانة، وكم أصبح السجن - لذلك - مقاماً لوزراء سطرت كتب التاريخ أسماءهم، ونهاية لكُتّاب لمعت عبر السطور بلاغاتهم: فمنهم من كان يقضي وقتاً ينتظر (النطع والسيف)، ومنهم من كان يرجو العفو والصفح، حتى وهو يرى الجلاد قد انتصب، منتضياً السيف، ينتظر أمراً بتنفيذ حكم القتل، أو ربما كان حكما بتقطيع يد أو رجل(٢٣). إلا أن غالبية من كان يؤخذ بجرم - مما ذكر - وقُدّم إلى القتل كان ينجو: إما بحضور بديهة أبداها، أو ببيت شعر

نطقه، أو باستعطاف مؤثر أطلقه.. «فربّ كتيبة فضّها كتاب، وخطب صرعه خطاب فانجاب، وأمل دعا به إملاءً فأجاب»(٢٤)، فكان هذا بمثابة ورقة اللعب الأخيرة في يده: فإما نجاة وإما مماتاً! وبعد ذلك، فإما أن يطلق سراحه ويخلع عليه، وإما أن يودع في الحبس، فيُنسى أمره لسنوات إلى أن يقيض الله له من يذكره فيخرجه ولكن بعد أن يكون ظلام السجن قد دمّره وأعماه(٢٥)، أو أن تكون أثقال الحديد قد أحنت منكبيه، والقيود قد أدمت قدميه، فينكب على وجهه إلى أن يموت(٢٦).

أولا: المراسلات:

أ - المكتوبة: وهي التي عرّفناها بأنها الخطابات - الرسائل - الصادرة عن السجن أو الواردة إليه(٢٧)، وهي في شتى الأغراض: من استعطاف، أو استرحام، أو اظهار الندم، أو عتاب أو شكوى. كل ذلك في شعر ونثر كما بينا.

مثال ذلك: أبيات حّملها عثمانُ بن عمارة بنُ خريم المرّي يزيدَ بنَ مزيد إلى الرشيد، يقول فيها(٢٨):

أغثني أميرَ المؤمنين بنظـــرةٍ	تزولُ بهـا عني المخافَـةُ والأزلُ
فعفوَك أرجو لا البـراءةَ جاهِدا	إلـى الله إلا أن يكونَ لك الفضلُ
فإلاّ أكُنْ أهلاً لمـا أنا طـالبٌ	فأنت، أميـرَ المؤمنـين، له أهلُ

قلنا: لقد كان شبح السجن والعقاب مثيراً للرعب والفزع، ليس في نفس المحبوس فحسب، بل في نفس من يتوقعه، إذ تنهار أمام «لفظه» أقسى النفوس، وتنخلع لذكره أعتى القلوب، فيهرب لا يلوي على شيء، ويستتر علّه ينجو منه(٢٩)، إلا أن شبح العقاب كان دائماً أمام عينيه، فلا يجد مناصاً إلا بالكتابة مسترحماً مستعطفاً: فإما أن يُعفى عنه، وإما أن يؤخذ بما رمي به. من ذلك كتاب حجر بن سليمان الكاتب الحرّاني(٣٠) إلى يحيى بن خالد البرمكي. فقد رُقي إلى الأخير عن حجر بن سليمان أمور، فكان عليه مغيظا. فلما وجه الرشيدُ يحيى بن خالد إلى حرّان ليقتل من هناك من الزنادقة، ضاق بحجرٍ منزله، فكتب إلى يحيى(٣١):

«أما بعدُ، فإنك لما حلَلتَ بأرضِنا، وقرُبَ مزارُك منا، اعتلَجَ بقلبي أمران:

أحدُهما: الاستتارُ منك وخفضُ الشخصِ في عسكرك. وأما الآخر: فالإصحارُ إليك والرضا بحكومتك فاعتلى الرجاءُ لعفوك الخوفَ من بادرتك، وعلمتُ أني لم أعجزْك فيما مضى من سالف الأيام، ولأنْتَ أعظمُ شأناً من الذي لم تَعْدُ قدرتُه الحيرةَ، اذ يقول النابغة(٣٢):

فإنك كالليل الذي هـو مُدْركي وإن خلتُ أنّ المنتأى عنكَ واسعُ

فأنا أسألُك مسألةً يعَظّمُ اللهُ عليها أجرَك، ويُجزلُ بها ذُخرَك، واسألُكَ بحقّ الله عليك إلا بَلّلتَ ريقي بعفوك، وفَرّجتَ الضيقةَ التي لزَمتْني بعطفِك».

فكتب إليه يحيى بالأمان له، والعفو عنه.

كان يحيى بن خالد من أكثر الناس بلاغةً وحباً لها، وعفوه هذا إقرارٌ منه ببلاغة حجر بن سليمان وشجاعته، وإعجاباً بحسن منطقه وإقناعه، فقد كان حجرُ من أفصح الناس مع أدب الكتابة وظرفها(٣٣)، فاستطاع بقدرته البيانية، وبقدرته العقلية الموازنة لها أن يصور انفعالاته النفسية حق التصوير، وبخاصة: الخوف والترقب. وكانت تعابيره غاية في الدقة ووضوح المعنى وصدق الدلالة، كل ذلك برباطة جأش أعانته على تخير ألفاظه. لهذا، وفّق توفيقاً كبيراً في أن يوصل تجربته إلى نفس من بعث برسالته إليه.

ولعلنّا لا نحيد عن الصواب كثيراً، اذا ما اعتقدنا أن جزءاً لا بأس به من هذه المراسلات - وبخاصة المكتوبة منها - يمكن النظر إليها على أنها وثائق (شبه تاريخية)(٣٤) لأنها أولا: تومىء إلى سبب السجن. وكثيرا ما كانت السلطة والملك والخوف عليهما من المناوئين، سبباً له، ثانياً: لأن هذه الرسائل تصف ما عليه المحبوس، والمستتر من الحبس، من البلاء وسوء الحال، ومن الخوف وترقب الموت، وانتظار الجلاد، إلى غير ذلك من معاناة نفسية، بالإضافة إلى المعاناة الجسدية.. مثال على ذلك، رسالة منسوبة إلى يحيى بن خالد البرمكي(٣٥)، يُقال(٣٦) إنه بعث بها إلى الرشيد من حبسه، يستعطفه فيها للإفراج عنه، ويبث فيها شكواه من معاناة السجن وقسوة الحال فيه.

يقول فيها(٣٧):

«من الحبس لأمير المؤمنين وخلَف المهديين، وخليفة رب العالمين. من عبد اسلَمَتْهُ عيوبُه، وأوبقَتْهُ ذنوبُه، وَخذلَه شَقيقُه، ورفضه صديقُه(٣٨)، وزالَ به الزمانُ، ونزلَ به الحدثانُ، وحلّ به الضيقُ بعدَ السّعَة، والشقاءُ بعدَ السعادة، وعالَجَ البؤسَ بعدَ الدّعة، ولَبسَ البلاءَ بعدَ الرخاء، وافترشَ السُّخْطَ بعدَ الرضى، واكتحلَ السُّهودَ وفقدَ الهُجودَ. ساعتُه شهرٌ، وليلتُه دهرٌ، قد عاينَ الموتَ، وشارفَ الموتَ جزَعاً يا أميرَ المؤمنين - قدّمني الله قَبْلَكَ - مِنْ مَوْجدَتكَ، وأسفاً على ما حُرمتُه بقربك، لا على شيءٍ من المواهب، لأن الأهلَ والمالَ إنما كانا لك وعاريّةً في يدي منك، والعاريّةُ لابدّ مردودةٌ. فأما ما اقتصَصْتَه من ولدي(٣٩)، فبذنبه،و عاقبتَهُ بجرمه وجريرته على نَفْسه، فإنما كان عبداً من عبيدك لا أخافُ عليك الخطأ في أمره، ولا أن تكونَ تجاوَزْتَ به فوقَ ما كان أهلَه ولا كان مع ذلك بقاؤه أحبّ إليّ من موافقتك. فتذكّر يا أميرَ المؤمنين - جَعَلني اللهُ فداك، وحجَبَ عني فَقْدَك - كِبرَ سنّي، وضعفَ قوتي، وارحمْ شيبَتي، وهبْ لي رضاك عني، ولْتَمِلْ إليّ بغفرانِ ذنبي، فَمِنْ مِثلي يا أميرَ المؤمنين الزللُ، ومن مثلِك

الإقالةُ، ولستُ أعتذرُ إليك إلا بما تُحبُّ الإقرار به حتى ترضى، فإذا رضيتَ رجوتُ أن يظهرَ لك من أمري وبراءةِ ساحتي ما لا يتعاظمُك معه ما مننتَ به من رأفتِكَ بي، وعفوك عني، ورحمتِك لي. زاد اللهُ في عمرِك يا أميرَ المؤمنين، وقدّمني للموتِ قبلَك». وكتب في أسفل هذا الكتاب أبياتاً، منها:

قُلْ للخليفةِ ذي الصنائعِ والعطايا الفاشية
وابنِ الخلائفِ من قريشٍ والملوكِ الهادية
إنّ البرامكةَ الذين رُمواً لديك بداهية
عمّتْهُمُ لك سخطةٌ لم تُبْقِ منهم باقية

وهي قصيدة طويلة(٤٠).

أدب السجون إذاً - كما بينا - مزيج من أغراض شتى: استعطاف واسترحام، وإقرار بالذنب، واعتراف به، وشكوى حال، على أمل واحد، وهو العفو وفك القيود، وإخراج من عالم السجن القاتم، أو إطلاق من غربة الاستتار المظلمة.. من ذلك، رسالة ابراهيم بن المهدي إلى المأمون(٤١).

إذ لما طال حصر إبراهيم بن المهدي(٤٢) وتنقله، خاف أن يظهر عليه، فكتب إلى أمير المؤمنين المأمون:

«وليّ (٤٣) الثأرِ مُحَكّمٌ في القصاص، والعفوُ أقرب للتقوى، ومَنْ تناوَله الاغترار بما مُدّ له من أسبابِ الرجاءِ أمكنَ عاديةَ الدهرِ على نفسه، وقد جعلَك اللهُ فوق كلّ ذي ذنب، كما جعلَ كلَّ ذي ذنبٍ دونك. فإنْ أخذتَ فبحقِّكَ، وإن عفَوْتَ فبفضلِك:

ذنبي إليك عظيمُ ... وأنتَ أعظمُ منه
فخذْ بحقِّك أو لا ... فاصفحْ بفضلك عنه
إنْ لم أكنْ في فعالي ... من الكرامِ فكُنْه

فوقّع المأمون في حاشية رقعته: القدرةُ تُذهبُ الحفيظةَ، والندمُ التوبةَ، وبينهما عفوُ الله، وهو أكثرُ ما يُسأله.

التجربة أنطقت إبراهيم بن المهدي فقد كانت تجربةً فريدةً في حياته.، ومريرة في الوقت ذاته، إذْ لم يستطع معها إلاّ الاستعطاف والاسترحام بلهجةٍ تتلاحق فيها أنفاسه، مع كلّ عبارة في رسالته تلك. ومع هذا فقد جاءت رسالته غاية في الفصاحة والإيجاز، حوت الحكم والمثل والعبرة، ضمنها صاحبها الاعتراف بالذنب، والإقرار بالجرم، فليسَ له منه خلاص - على عظمه - سوى العفو، فلاذ بالخليفة راجياً منه ذلك بعد أن أبدى الندم والتوبة.

ومن ذلك - أيضا - كتاب يحيى بن حماد الكاتب إلى طاهر بن الحسين(٤٤) لما حبسه لتركه ما أراد أن يقلده من كتابته، يبثه فيه شكواه من ثقل الحديد، ومكابدة الهموم، والوحشة في دار الغربة والبعد عن الأهل: بأسلوب مؤثر، وكلام بليغ مقنع. رقى فيه صاحبه إلى قمة البلاغة، وغاية الفصاحة، بترسل عجيب، وإحساس صادق. وهي - في اعتقادنا - خير مثال على أسلوب تلك الحقبة - نهايات القرن الثاني، وبدايات القرن الثالث الهجريين - الذي يتميز بالجزالة والفصاحة في اللفظ والعبارة، بعيدا عن المزاوجة والسجع - إلا ما جاء عفوا - قد زخر بالمعاني الشريفة المشعرة بسعة العقل وقوة المنطق: لهذا، وقع - الكتاب - في نفس طاهر موقعه، ورد عليه - طاهر - بجواب يطاوله في البلاغة، ويفوقه في الفصاحة، مع براعة في أداء المعاني، وجودة في سبك الجمل وأناقة في صوغ الكلام (وهذا ما عرف عنه)، وإن كان في كتابه هذا تقريع ليحيى؛ لغفلته عن درجته، وجهله عن موضعه، ولكن، ما يلبث الأمير أن يختار العفو عنه بعد أن كادت يده تبطش به، وسطوته تنهكه.. يقول يحيى بن حماد في كتابه(٤٥) إلى طاهر بن الحسين:

«بسم الله الرحمن الرحيم،

تمّم الله للأمير السلامَة، وأدامَ له الكرامةَ، ووصل نعَمه عليه بالزيادة، وقوّى إحسانَه إليه بالسعادة. ضَعُفَ بصري - أعزّ اللهُ الأميرَ - عما أقاسي من ثقَل الحديد، ومكابَدة الهموم، ومصاحبة الوحشة في دار الغربة عن انقطاع الأهل وتعقّب الوحل، واستخلاف البلاء من وثيق الرجاء، وتذكُّرى ما أفاتنيَ القضاءُ الماضي مَن رأيَ الأميرَ - أعزَّه اللهُ - فيّ، وموجدَته عليّ. لقد تخوفتُ أن يُسرعَ لزومُ الفكرة إياي في فسادي، ويصيرَ بي تمكُّنُ الهم إلى تغيُّر حالي. ولولا أنّ سخطَ الأمير - أيدّه اللهُ - لا يُصبَرُ عليه، ووجدَه لا يُقام له، لرأيتُ الإمساكَ عن ذكر أمري وشكوى ما بي إلى أن يستوي غيرُ ما أنا فيه لسرور ما كنتُ صرتُ إليه من إكرام الأمير - أيده اللهُ - وبره وتشريفه وتقريبه. ولعمري، إن شديدَ ما أقاسي - ولو دام حيناً من دَهري - ليَصْغُرُ عندَ لحظة لحظَها إلى برّه فضلاً عن رأيه الذي جلّ عن قدري، وعَجزَ عن احتماله شكري. وقد تبيّنَ للأمير - أعزّه الله - أمري وتحَقيقُ شأني: فإن كان ما أنا فيه للهَفوة التي كانت منّي والجناية التي جنيتها على نفسي بالجَهل بصباي، فقد وضع اللهُ عن الصبيّ فرائضَه علما بحاله، وكانت حالي في الصّبا قريبةً منَ حاله. والأمير - أعزه الله - أولى مَن عطفَ في ذات الله عَنْ زّلتي، واحتسبَ الأجرَ في إقالة عثرتي وهفوتي: فإنْ رأى الأميرُ - أبقاه الله - أن يأمرَ بالدّعاء بي واستماع مني فعل إن شاء الله».

وفيما يلي جواب طاهر بن الحسين على كتاب يحيى بن حماد السابق(٤٦):

«قلةُ نظَرك لنفسك حرَمتْكَ سَنا المنزلة- وغفلتُك عن حظّك حطّتْكَ عن درجتك، وجهلُك بموضع النعمَة أحلّ بَك الغيرَ والنّقمة،و عماؤك عن سبيل الدّعة أسلكَكَ في طريق المشقّة،

حتى صرتَ من قوة الأمل معتاضاً شدةَ الوجل، ومن رجاء الغد مُعقبا بإياس الأبد، حتى ركبتَ مطيّةَ الخوف بعد مجلس الأمن والكرامة، وصرتَ موضعاً للرّحمة بعدَ أن تكتَّفتْك الغبطة. على أني أرى أمثلَ أمرَيْك أدعاهما للمكروه إليك، وأنفعَ حالتيك أضيقهما.. بقول القائل:

إذا ما بدأت امرءاً جاهلاً ... ببُرْءٍ فقصـــرَ عن حملـه

ولم تُلْفِه قائلاً بالجميـــل ... ولا عرَفَ العـزّ مـن دلِّـــه

فسُمهُ الهوانَ فإنَّ الهـوانَ ... دواءٌ لذي الجهل عن جهلِه

وقد قرأتُ كتابك باغراقك وإطنابك، فوجدت أرجاه عندك آيةً وأرقّه في نفسك أقساه لقلبي عليك. ومن صافَه ما أذهبتَ وخامَرَه ما ذكرتَ خرسَ عن تشقيق وتزويق الكذب والآثام. ولعمري، لولا تعلُّقُك مني بجرمة المعانية، واتصالُك مني بسبب المفاوضَة، وإلحائي بهما لمَن نالهما بسطُ المنفعة وقبضُ الأذى والمعرة مع استدامتي النعمةَ بالعفو عن ذي الجريمة، واستدعائي الزيادة بالتجاوز عن ذي الهفوة، واستقالتي العثرة بإقالة الزّلة - لنالك من عقوبتي ما يؤذيك، ومسَّكَ من سطوتي ما ينهكُك. وبحسبكَ ما اجترمتَه لنفسك من العجز ذُلاً وجهلاً، وما أخلدْتَ إليه من الخمول وضعا وبَما حُرمتَه مَن الفضل عقوبةً ونقصا. وفي كفايةِ الله غنىً عنك، وفي عادتِه الجميلةِ عِوضٌ منك، وحسبُنا اللهُ ونِعمَ الوَكيلُ أقوى معينٍ وأهدى دليل.

كلام طاهر بن الحسين هذا يصدق عليه ما قاله أحمد حسن الزيات عن أصالة الأسلوب(٤٧)، من أن هذه الأصالة تنبني على ركنين أساسيين، من خصوصية اللفظ وطرافة العبارة، وتلك هي الصفة الجوهرية للأسلوب البليغ.. والخصوصية في اللفظ أصل الدقة في التعبير والوضوح في المعنى والصدق في الدلالة، وطرافة التعبير أساسها الابتكار في حكاية الخبر وتصوير الفكر وتقديم الموضوع». وكلام طاهر ينطوي على هاتين الخصوصيتين، إلى جانب ما فيه من تأنق الجمل وتناسب الفقر.

لقد كانت لهجة الاستعطاف -عند المحبوس - تتخذ في بعض الأحيان مسحةً من العزة والترفُّع عن التذلُّل، لكنْ بشيء من الاسترحام غير المبتذَل. مثال ذلك ما كتبه أحمد بن اسرائيل إلى الواثق، وقد عزله عن ديوان الخراج، وأمر بتقييده ليصحح حساباته(٤٨):

«يا أميرَ المؤمنين، بم يستحقُّ الإذلالُ من أنت بعدَ الله ورسوله موئلُ عزِّه، وإليك مفزعُ أمله، ولم تَزَلْ نفسُه راجيةً لابتداء احسانك إليه، وتتابع نِعَمه لديه، وعينُه طامحةً إلى تطوُّلك عليه، ورفعك منه الزيادةَ في الصَّنيعة إليه. فهبْ له يا أميرَ المؤمنين ما يَزينُك، واعفُ عمّا لا يشينُك، فما به عنك معدل، ولا على غيرك معوّل».

ومع ذلك، فقد كان السجن بقيوده وعذاباته مصدر فزع وألم ومعاناة، تنهار أمامه أعتى الجباه، وتستجدي - من أجل الخلاص منه - أقسى القلوب بلهجةِ مستضعَفةٍ مستكينة

للخلاص من القيود، بعد أن كانت - هي - تضع في الأيدي القيود. من ذلك، الرقعة التي أنفذها ابن مقلة مع أبي عبدالله زنجي الكاتب(٤٩) إلى الوزير أبي الحسن بن الفرات في وزارته: ليعرضها عليه وقت خلوة، وكان فيها(٥٠):

«أقصرتُ - أطالَ الله بقاءَ الوزير - عن الاستعطاف وعن الشكوى حتى تناهَت بيَ المحنةُ والبَلوى في النفس والمال، والجسم والحال إلى ما فيه شفاءٌ للمنتقم، وتقويمٌ للمُجتَرم، حتى أفضَتْ بي إلى الحَيرة والتبلّد، وبعيَالي إلى الهتكة والتلدُّد(٥١)، وما أقول إنّ حالا أتاها الوزيرُ - أيَّدَه اللهُ - في أمري إلا بحقٍّ واجب، وظنٍّ صادق غير كاذب إلا أن القدرةَ تذهبُ الحفيظةَ، والاعتزالَ يُزيلُ الاقترافَ، وَرَبَّ المعروف يوثِرُه أهلُ الفضل والدين، والإحسانُ إلى المسيء من أفعال المتَّقين وعلى كلِّ حالٍ فلي ذمامٌ وحُرمةٌ، وتأميلُ خدمةَ، إن كانت الإساءةُ تُضيِّعُها فرعايةُ الوزير - أيّدَهُ الله - تحفظُها. فإن رأى الوزير - أطال الله بقاءه - أنْ يلحظَ عبدَه بعين رأفته ويُنعِمَ بإحياء مهجته، ويتخلَّقَها من العذاب الشديد، والجهدِ الجهيد، ويجعلَ له من معروفه نصيباً، ومن البلوى فرَحاً قريباً، فعلَ إن شاءَ الله».

وقد قلنا: كان المحبوس يتبادل الرسائل مع إخوانه وأصدقائه، يبثُّ فيها لواعجه وآلامه وغضبه وحنقه. وفي بعض الأحيان يتظاهر بخلاف ما يعاني، ومع ذلك فإن هذه المخالفة تكون أبلغ في التعبير من المباشرة. مثال ذلك: كتاب محمد بن أسلم الطوسي، حبسه عبدالله بن طاهر(٥٢) فكتب إليه بعض اخوانه يعزيه عن مكانه، فأجابه(٥٣):

«كتبتَ إليَّ تعزّيني، وإنما كان يجب أن تهنّيني! أُريتُ العجائبَ، وعُرِضَتْ عليّ المصائبُ. إني رأيت اللهَ تعالى يتحبَّبُ إلى من يؤذيه، فكيف من يُؤذى فيه؟ إني نَزَلْتُ بيتاً سقطتْ فيه عني فروضٌ وحقوقٌ، منها: الجمعةُ والأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر، وعيادةُ المريض وقضاءُ حقوق الاخوان، وما نزلتُ بيتاً خيراً لي في ديني منه!».

إنا لنجد الغضب هائجاً في صدره، يكاد يتفجر مع كل لفظة. وإن هو حاول أن يخفيه إلا أنه يظهر في المخالفة التي أشرنا إليها: فهو يحمد ما هو في الحقيقة مكروه، فكان أبلغ في التعبير بهذا من التصريح به.

قد تبدو هذه الرسالة موجزةً - وهي كذلك في الحقيقة - إلا أنها في الوقت نفسه طويلة، فقد يوجد الطول في الإيجاز، «إذْ ليستْ العبرةُ في طول ما يكتب لنفس الطول، وإنما بالنظر إلى ما عبّر عنه من معان(٥٤)، ومعاني هذه الرسالة غزيرة تنزّى مع كل لفظة. وقد نجحتْ - في اعتقادي - في الكشفِ عن حالة المحبوس النفسية، ومعاناته المريرة، بسبب حرمانه من القيام بالحقوق، وأداء الواجبات.

وكثيرا ما نجد (في أدب السجون) رسائل شعرية، يتقربُ بها أصحابها إلى أولي الأمر

زلفى، علّهم يغيثونهم مما هم فيه من البلاء، أو يلوذون بمن لهم دالّة عليهم، إذا تعذّر الوصول إلى صاحب الأمر في حاله، وهذا الشعر يسوقه صاحبه لائذا بالمدح فيه، وكثيرا ما يكون مدحاً مُغالياً.

مثال ذلك: ما رُوي عن إبراهيم بن المدبر في محنته. «فقد لجّ عبيدالله (بن يحيى بن خاقان) فلم يكُنْ لأحدٍ في خلاصه (أي إبراهيم) معه حيلةٌ حتى استغاث بمحمد بن عبدالله بن طاهر، وقال فيه من قصيدة:(٥٥)

دعوتُك في كربٍ فلبّيتَ دعوتي ... ولم تَعترضني إذْ دعوتُ المعاذرُ
اليك - وقد خُلِّئتُ(٥٦)-أوردْتُ همِّتي ... وقد أعْجَزَتْني عن همومي المصادرُ
نمى بك عبدُ الله في العزّ والعلا ... وحازَ لك المجدَ المؤثَّلَ طاهرُ
فأنتم بنو الدنيا وأفلاكُ شرقِها ... وساستُها والأعظمون الأكابرُ
مآثرُ كانت للحسين ومُصْعَب ... وطلحةَ لا يحوي مداها المفاخرُ
إذا بذلوا قيل الغيوثُ البواكرُ ... وإن غضبوا قيل الليوثُ الهواصرُ
تُعَظِّمُكم يومَ اللقاء البواترُ ... وتُزهى بكم يومَ المقالِ المنابرُ
فما لكم غيرَ الأسَّرةِ مجلسٌ ... وما لكم غيرَ السيوفِ مخاصرُ

إلى أن يقول فيها:

ولي حاجةٌ إن شئتَ أحرَزْتَ مجدَها ... وسرَّك منها أوّلٌ ثم آخرُ
كلامُ أميرِ المؤمنين وعطفُه ... فما ليَ بعدَ الله غيرَك ناصرُ
فإنْ ساعَدَ المقدارُ فالصفحُ واقعٌ ... وإلاّ فإني مخلصُ الوُدّ شاكرُ

وكان قد استنفذ جهده بالاستغاثة بمن يعرفهم من ذوي النفوذ لدى السلطان، من هؤلاء: أبو عبدالله بن حمدون - نديم المتوكل - فقد قال، بعد أن حبسه عبيدالله بن يحيى في محنته تلك من قصيدة يخاطب بها أبا عبدالله بن حمدون ويستنهضه لتذكير الفتح بن خاقان بأمره، ويصف غليظ ما هو فيه من الحبس وثقل الحديد والقيد(٥٧):

يا ابن حمدونَ فتى الجودِ الذي ... أنا منه في جنى وَرْدٍ جني
ما الذي تَرْقُبُه أم ما ترى ... في أخٍ مضّطَهدٍ مُرتَهَنِ
كم ترى يبقى على ذا بدني ... قد بلِي من طولِ همّي وفني
أنا في أسرٍ وأسبابِ ردى ... وحديدٍ فادحٍ يكلِمُني

وأبـــو عمـــرانَ مـوسى حَنَـقٌ حاقـــدٌ يطلبُنـــي بالإحَـــنِ
وعُبيـــد اللـــه أيضـــاً مثلُـه ونجـــاحٌ فَمـجـــدٌ لا يَنـــي
ليـــس يشفيـــه سـوى سفكِ دمي أو يـــراني مُدرجـــاً فـــي كفني
والأميـــرُ الفَتْـــحُ إنْ أذكَـــرْته حُـرْمـــتي قـــام بأمـــري وعُـني
فـــألُ صـــدقٍ حـــين أدعو باسمِهِ وســـرورٌ حـــين يعـــرو حـــزنـي
ظفِـــرَ الأعـــداءُ بي عـــن حيلةٍ ولعـــلَّ اللـــهَ أن يُظْفـــرنـــي

وكان الاستعطاف والاسترحام أكثر الأدوات فاعلية في يد من كان يحسن نظم الكلام شعراً ونثراً من السجناء، فيُعفى عنه بعد أن يتخلّص من ذنبه باعتراف لطيف، وإقرار به مستحسن: مثاله بيتان لأبي الجهم الكاتب يخاطب نجاح بن سلمة معتذرا وهو محبوس(٥٨):

إنْ تعفُ عن عـبـدِك المسيء فـفي عـفـــوك مـأوى الفـضل والمنَنِ
أتيْـــتُ مـا استـحـــقٌ مِنْ خطَإٍ فَـجُـدْ بمَا تستـحِـقُّ مـن حَسَنِ

وهناك نوع آخر من الشكوى نراه عامّاً في رسائل هؤلاء المحبوسين، وهو الشكوى من تنكر الأصدقاء وتخلّي الإخوان. وربما كان سبب ذلك ما ذكره عبدالله بن زنجي الكاتب قال:(٥٩) «لما نكب أبو الحسن بن الفرات أبا علي بن مقلةَ في وزارته لم أدخلْ إليه في الحَبس، ولا كاتبتهُ متوجعا له، ولا راسلتُه بحرفٍ خوفاً مَن أن يرقى ذلك إلى ابن الفرات». فلقد كان يؤخذ بذنب المحبوس أهله وأقرباؤه وخلصاؤه(٦٠). من هنا كان المحبوس يجد نفسه وحيداً، وقد هجره حتى أقرب أصدقائه، وكانت مصيبته الثانية بعد حبسه. وقد بثّ يحيى بن خالد لوعته من تنكر الأصدقاء بعبارة غاية في الإيجاز، لكنها مفعمة بالمعاني كان فيها كما قال عنه ثمامة: «أنطق الناس، قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة، وإفهاماً يغنيه عن الإعادة». وهي تلك العبارة التي كتب بها إلى أخيه محمد من الحبس. يقول فيها: «أنكرت صديقي وعرفت عدوي»(٦١). لذا، كثرت شكوى الأصدقاء وكثر عتابهم في «أدب السجون»، وكأني بهؤلاء المحبوسين كانوا يرون في رقاع أصدقائهم إليهم الخيط الذي يربطهم بالعالم الخارجي، وينعش في نفوسهم بعضاً من أمَل، غدا يلوح لهم سراباً. كتب أبو اسحاق الصابي إلى قاضي القضاة أبي محمد بن معروف، وقد كان زاره في معتقله رقعة، هذه نسختها(٦٢) «لقد قوّى دخولُ سيدنا قاضي القضاة إليّ نفسي، وجدّد أنسي، وأعزّب نحْسي، ووسّع حبسي. فدعوتُ الله تعالى بما قَدِ ارتَفَع إليه، وسَمِعَه له. فإنْ لم أكنْ أهلاً لأنْ يُستجاب في، فهو، أيّده اللهُ، أهلٌ لأن يُستجاب فيه. وأقول مع ذلك:

دخلتَ حـاكـــمَ الـزمـــانِ علـى صنيعـةٍ لك رهنَ الحبس مُـمْتَحنِ
أخْنَتْ عليه خطوبٌ جارَ جـائرها حتـــى توَفّـاه طولُ الهَـــمِّ والحَزَنِ

فعاش من كلماتٍ منك كُنَّ لـه كالـرُّوحِ عائـدةً منه إلى البدَنِ

وقد صوّر ابراهيم بن المدبر عندما نُكب، حالَ المحبوس، وقد تخلى عنه أصدقاؤه، بقوله(٦٣):

وصديـقٍ تـراه حلـوا أنيقـاً مُؤْنِسـا مُلْطفـا حَفِيّاً شفيقـاً

ثُمّ لمّـا رماني الدهـرُ بالغِلْظَةِ منـه صـارَ البعيـدَ السحيقا

وبعد ذلك بسنوات، نرى الخوارزمي يكتب إلى صديق يعاتبه، بعد أن تخلص من يد ابراهيم بن محمد، حيث يقول(٦٤): «..كُنْتُ أتوقّعُ أمس كتابَ الشَّيْخ بالتَّسْلِيَةِ، واليومَ بالتهنئةِ، فلم يكاتِبْني في أيامِ الرجاءِ بأنها غَمّتْهُ، ولا في أيامِ الرخاءِ بأنهَا سَرّتْه. وقد اعتذرتُ عنه إلى نفسي، وجادَلْتُ عنها قلبي، فقلتُ: «أما إخلالُه بالأولى فلأنه شغلَهُ الاهتمام بها عن الكلام فيها. وأما تغافُلُه عن الأخرى فلأنّه أحبّ أن يُوفّرَ عليّ مرتبةَ السابقِ إلى الابتداءِ، ويقتصرَ بنفسِه على محلِّ الاقتداءِ...»

ومثل ذلك عتابُ ابن مقلة لصديقه عبدالله بن زنجي الكاتب، في أبيات بعثها إليه، يقول فيها(٦٥):

تُرى حُرِّمَـتْ كتبُ الأخـلاّءِ بينهم أبِنْ لي، أم القرطاسُ أصبحَ غاليا

فما كان لو سـاءَلتَنـا كيـفَ حالُنا وقد دَهمَتْنا نكبـةٌ هـي ما هيا

صديقُـك من راعاك عندَ شديـدَةٍ وكلٌّ تراه في الرخاءِ مـراعيا

فهَبْكَ عـدوّي لا صـديقي فربّمـا يكاد الأعـادي يرحمون الأعاديا

فهذه أبيات أودع بها صاحبُها ألماً عميقاً، وعتاباً مخلصاً لصاحب قد أنكره، وكان أولى به أن يخفّف عنه، وأن يجلوَ صدأ روحه بكلمة تعزية تلوح منها بارقةُ أمل في ظلام دامس يعُمُّ النفس في سجن يكاد الإنسانُ ينسى فيه الزمن.

مثل هذا ما كَتب به سليمان بن وهب من حبسه(٦٦) الذي حبس فيه مع أحمد بن المدبر وأحمد بن اسرائيل إلى أخيه الحسن بن وهب(٦٧):

هل رسـولٌ فكيـفَ لـي برسـولِ إنّ ليلـي إنْ نمتُ جـدٌّ طويـلِ

هـل رسـولٌ إلى أخـي وشقيقي لَيْـتَ أنّـي مكانَ ذاك الرسولِ

يا أخي لو ترى مكانيَ في الحبس وحـالي وزفـرتي وعـويلـي

وعثـاري إنْ أردْتُ قيامـاً وقُعـوداً فـي مُثقـلاتِ الكبولِ

لرأيـتَ الذي تغمُّـك في الأعداء أنْ يسـلكوا جميعـاً سبيـلي

هـــذه جملـــةٌ أرانـــي غنيّاً معـهـــا عـــن أذاك بالتفـصيـــلِ
ولعـــلّ الإلـــهَ يأتـــي بصنع وخـــلاصٍ وفرجـــةٍ عـــن قليـلِ

فكتب إليـــه أخوه الحسن بن وهب مشجعاً ومخففاً(٦٨):

مِحَنٌ أبـــا أيوبَ أنْـــتَ محلُّها فإذا جزعتَ من الخطوبِ فمنْ لها؟
إن الذي عقدَ الذي انعقدتْ به عُقـــدُ المكـــاره فيك يحسُن حلُّها
فاصبرْ، فإنَّ الله يُعقِبُ فَـرْجَةً ولعـلَّهـــا أنْ تنجـلـــي ولعلّهـــا
وعسى تكونُ قريبةً من حيث لا ترجـــو وتمحـــو عن جديدِك ذُلهّا

فتفاءل أخوه، وقويت نفسه، فكتب إليه: (٦٩)

صَبّرْتَـــني ووعظتَنـــي وأنـا لها وستنجـلي، بـــل لا أقـــولُ لعلها
ويُحِلُّها من كانَ صاحـبَ عقدِها ثقـــةً إذ كـــان يملِكُ حلَّـهـــا

فالمحبوس كان يلوذ بكل شيء يرى فيه خلاصاً من حبسه ويستصرخ الأصدقاء لذلك: فهم أولى من يُغيث وأجدرُ من يُستصرخ.

لما عُزل ابراهيم بن العباس الصولي عن الأهواز في أيام محمد عبدالملك الزيات، اعتقل بها وأوذي. وكان محمد قبل الوزارة صديقَه، وكان يؤمّلُ منه أنْ يسامحَه ويُطلِقَه، فكتب إليه(٧٠):

فلو أذنبـا دهـراً وأنكـرَ صاحبٌ وسُلّـطَ أعـداءٌ وغابَ نصيرُ
تكونُ عن الأهـواز داري بنجوة ولكـــنْ مقاديـــرٌ جـرَتْ وأمورُ
وإنـي لأرجو بعـدَ هذا محمداً لأفضـلِ مـا يُرجـى أخٌ ووزيرُ

إلاّ أن صديقه لم يُغثْهُ آنذاك، بلْ بالغ في الإساءة إليه.

فما بالُك بعد هذا، إنْ كان الصديق هو السجان ومن بيده أمر صديقه: إنْ حكما بالموت أو عفـوا وإطلاقـا! فاسـتعطاف مـثل هذا الصـديق يورث في النفس أسىً، إذ ربما كـان يرجـو المحبوسُ من هذا الصديق رحمةً دون أن يسترحمه، وعفواً دون أن يستجدي رحمته. إننا لنقرأ ذلك في رسالةٍ أخرى بعث بها إبراهيم إلى ابن الزيات بعد أن خذله في الاستغاثة الأولى(٧١):

«كتبتُ إليك وقد بَلَغت المديةُ المحزّة، وعدت الأيامُ بك عليَّ بعدَ عْدوي بك عليها. وكان اسوأَ ظني وأكثرَ خوفي أن تسكنَ في وقتِ حركتها، وتكفَّ عن أذاها، فصرتَ عليّ أضرّ منها، وكفَّ الصديقُ عن نُصرَتي خوفاً منك، وبادرَ إلي العدوُّ تقرّباً إليك.

وكتب تحت ذلك:

أخٌ بيني وبَيْنَ الدَّهْرِ صاحَبَ أيّنا غلبَا
صديقٌ ما استقامَ فإن نبَا دهرٌ علّي نبا
وثبّتُ على الزمان به فعادَ به وقد وثبا
ولو عادَ الزمانُ لنا لعادَ به أخاً حَدِبا

وكتبَ إليه - يبثُّ خيبةَ أمله واستياءه من خذلانه إياه(٧٢):

«أما والله لو أمنْتُ ودّك لقُلْت، ولكنّي اخافُ عَتْباً لا تُنْصفُني منه، وأخشى من نفسي لائمةً لا تحتملُها إلّي. وما قُدِّر فهو كائن، وعن كلٍّ حادثة أحدوثة، وما استبدلتُ بحالة كنتُ فيها مغتبطاً حالةً أنا في مكروهها وألمها أشدُّ عليّ من أني فزعت إلى ناصري عندَ ظلمٍ لحِقَني، فوجدتُ من يظلمني أخفَّ نيّةً في ظلمي منه وأحمدُ الله كثيراً.

ثم كتب في أسفلها:

وكنتَ أخي بإخاءِ الزمانِ فلمّا نبا صِرْتَ حرباً عُواناً
وكنتُ أذمُّ إليك الزمانَ فأصبحتُ فيك أذُمُّ الزّمانا
وكنتُ أُعِدُّك للنائباتِ فأصبحتُ أطلبُ منك الأمانا

ألا ترى هذا التوكيد اللفظي بتكرار الكلمات: كنت، وأصبحت، والزمان: إنَّ صاحبَ الأبيات لم يأتِ بها جزافاً، بل تردَّدَتْ هنا لتكونَ له متنفساً ينفثُ من خلاله ا لغضبَ والسخط لموقف صديقه، الذي كان يدّخرهُ لمثل هذه الأيام، لكنّه خذله خذلانَ الزمان لناسه عبر السنين. وكانت هذه الكلمات تأكيداً للعتاب الشديد في سطور رقعته قبلها. وكان أنْ وقفَ الواثقُ على تحامل ابن الزيات عليه «فرفع يده عنه، وأمر أن يُقبلَ منه ما رفضَه، ويُردَّ إلى الحضرة مصوناً. فلما أحسّ إبراهيمُ بذلك، بسط لسانه في ابن الزيات، وهجاه هجاء كثيراً»(٧٣) يستحقُّه لتنكُّرِه له أيّامِ محنته. فقد كان أولى به أن يمدَّ له يدَ العون لينتشله من ظلام السجن الذي أوقعه فيه حظُّه، ومثل هذا يقول أبو اسحاق الصابي في أبيات كتبها -وهو في الحبس- إلى أبي العلاء صاعد بن ثابت:(٧٤).

أيها السَّيِّدُ قد كُنْتَ إلى الفضلِ تُسارِعْ
وتراعينا ببرٍّ مُتَوالٍ متتابِعْ
فلماذا وقد تسَرْبَلْتَ لنا سِربالَ قاطِعْ
ونحن في الصحبةِ كالنِّسْرَيْنِ لكنّيَ واقِعْ
وعلى الآخَرِ أنْ يَغْشى أخاه ويراجِع

ب- المراسلات الشفوية:

وهي تلك التي يتبادلها المحبوس مشافهةً مع من أودعه السجن(٧٥). ونصوص هذا القسم قليلة، وغير دقيقة في النقل؛ لهذا ستُثْبتُ هنا واحدةً منها، وهي الرسالة الشفوية التي بعث بها «الأفشين» إلى المعتصم من حبسه مع حمدون بن اسماعيل، يقول فيها(٧٦):

«قل لأمير المؤمنين: أحسنتَ إليَّ وشَّرفْتَني، وأوْطأت الرجالَ عَقِبي، ثم قبلْتَ فيّ كلاماً لم يتحقَقْ عندك، ولم تَتَدَّبرْه بعقلك...(٧٧)وما كان ينبغي أن تقبلَه من عدوٍّ عَرَفْتَ سببَه، وأنت أولى بي، فأنا عبدٌ من عبيدك وصنيعُك. ولكنَّ مثلي ومثلك -يا أميرَ المؤمنين- مثلُ رجل ربّى عجلاً له حتى أسْمَنَهُ وكُبر وحَسُنَتْ حالُه، وكان له أصحابٌ اشتهوا أنْ يأكلوا من لحمِه فعرضوا له بذبح العجل فلم يُجبْهم إلى ذلك، فاتفقوا جميعاً على أن قالوا له ذات يوم: ويحك! لِمَ تُربّي هذا الأسَد؟ هذا سبعٌ، وقد كُبر، والسبعُ إذا كَبر يرجعُ إلى جنسه. فقال لهم، ويحكم، هذا عجلُ بقر، ما هو سبعٌ. فقالوا: هذا سبعٌ. سَلْ من شئتَ عنه. وقد تقدّموا إلى جميع من يعرفونه، فقالوا لهم: إن يسألكم عن العجل، فقولوا له: هذا سبع. فكلما سأل الرجل إنساناً عنه وقال له: أما ترى هذا العجلَ ما أحسنه؟ قال الآخر هذا سبع، هذا أسد ويحك. فأمر بالعجل فذبح. ولكني أنا ذلك العجل، كيف أقدر أن أكون أسداً؟ اللّهَ اللّهَ في أمري. اصطنعتني وشرَّفْتني وأنت سيّدي ومولاي، أسأل اللّه أن يعطف بقلبك عليَّ».

يُلاحظ أن السِّمة الأسلوبية الغالبة على رسالة الأفشين هذه: الوضوح والبساطة والترسل، فهو في موقف يحتاج فيه إلى ذلك ليُحرزَ لنفسه غرض هذه الرسالة وهو: العفو. وهذه الرسالة من قبيل أمثال الحيوان(٧٨).

أشرنا -فيما مر(٧٩)- إلى أن بعض رسائل أدب السجون ربما كانت ذات قيمة تاريخية؛ لأنها تومىء -ولو تلميحاً- إلى مناسبة سياسية بعينها كانت سبباً في زج صاحبها في غياهب السجن. ورسالة الأفشين -التي بين أيدينا- من هذا القبيل. فهي تذكرنا بالأفشين، قائد المعتصم الذي أخمد حركة بابك الخرّمي(٨٠)، ومع هذا فقد وُشي به إلى المعتصم، فرماه بالخيانة والزندقة(٨١).

وهو في رسالته هذه يرد التّهم عن نفسه، مستشفعاً مسترحماً، مذكّراً المعتصم بسالفِ عهده، وآنفِ خدمته، وأنّه ربيبُ نعمته. وأنَّ ما حصل له لم يكن ليحصلَ لولا سعايةُ النمّامين والمغرضين الذين زيّنوا للمعتصم التخلص منه، وكأني بالأفشين قد استوحى حكايته هذه من المثل المشهور: أكلت يوم أكل اثور الأبيض. كما وقع للأسد والثور في كتاب كليلة ودمنة فكان ذلك، ومات الأفشين في لؤلؤة الجوسق، ومُثِّل بجثته ثم أحرقت.

ثانيا: المناظرات والمحاورات:

وهو القسم الثاني من أقسام «أدب السجون»، وهو ذاك الكلام المتبادل بين المحبوس ووليه(٨٢). وكان يدور -عادة- حول ذنب المحبوس، وفيه تهديد ووعيد. ويقوم المحبوس بالرد على التهم، فإما أن يقر بذنبه ويطلب العفو، وإما أن يدفع عن نفسه ما ألصق بها من تهم. وغالباً ما يكون ذلك بقوة بيان، وحضور بديهة، وقوة منطق، تؤدي -في غالب الأحيان- إلى صدور العفو عن المتهم. ونصوص هذا القسم كثيرة، والنص الواحد يتردد في كتب عدة، مع اختلاف الروايات فيه؛ لهذا السبب انتقينا من هذه النصوص ما وجدناها أقرب إلى الصحة، ومقياسنا في ذلك ورود المتن فيها بنص واحد في تلك الكتب، واستَثْنَيْنا ما رأينا أنه موضوع(٨٣).

من خلال قراءتنا لنصوص هذا القسم من «أدب السجون» واجهتنا ظاهرة واضحة جليّة، وهي أنَّ هذه النصوص -النثرية بخاصة- تميل في معظمها إلى الإيجاز في الحوار. وتعليلنا لظاهرة الإيجاز هذه أنها تعود إلى أن موقف المحاسبة الذي يقفه المتهم ليس فيه بسطة من حال، ولا فسحة من زمن يتحرك فيها المتهم بكلامه كيف شاء، فهذا الموقف -برهبته وما يسببه في النفس من فزع، وبخاصة إذا نُشر النطع وسُلَّ السيف - كان يفرض على المتهم التركيز على ما يقول؛ وأن يحشد حشاشة فكره فيه، وإلاّ كان السيف أسبق إليه، عند ذاك ينطبق عليه المثل: «سبق السيف العذل».

أول مثال نبدأ به ما كان مِنْ حوار بين المنصور وعبدالحميد بن ربعي الطائي(٨٤):

لما أُخذ عبدالحميد بن ربعي وأُتي به المنصور، ومَثُل بين يديه،

قال: لا عذَر لي فأعتذر، وقد أحاط بيَ الذنبُ، وأنت أولى بما ترى.

قال المنصور: إني لستُ أقتلُ أحداً من آل قحطبةَ، أَهَبُ مسيئَهم لمحسِنِهم.

قال: إنْ لم يكن فيّ مُصْطَنَعٌ فلا حاجةَ لي إلى الحياة، ولستُ أرضى أن أكون طليق شفيع وعتيقَ ابن عم.

قال المنصور: اخرج، فإنك جاهل، أنت عتيقُهم ما حييت.

يغلبُ على هذه المناظرة -كما هو ملاحظ- ميلٌ إلى التلميح دون التصريح، وإلى التقدير والإبهام دون التفسير، بالإضافة إلى الإيجاز الذي «يزيد في دلالة الكلام عن طريق الإيحاء، ولأنه يترك على أطراف المعاني ظلالاً خفيفة يستغل بها الذهن، ويعمل فيها الخيال»(٨٥)، لهذا فمن يقرأ هذا الحوار لن يفهم شيئاً مما دار فيه، إلا إذا عرف الإيماءات والإشارات التي وردت خلاله ودلالاتها(٨٦).

إيجاز الحوار، وقصر العبارات فيه، وترتيب أفكاره، صفة عامة تتصف بها نصوص هذه

المناظرات، إلى جانب ما يظهر فيها من ذكاء المحاوَر، وحضور بديهته، وحسن بيانه، وقوّة منطقه. نرى مثل ذلك في الحوار التالي الذي دار بين المهدي ووزيره يعقوب بن داود، «لما سخط المهدي على يعقوب، أحضره(٨٧)،

فقال: يا يعقوب.

قال: لبيك يا أمير المؤمنين تلبيةَ مكروب لوجدتِكَ، شَرِقٌ بغُصَّتِك.

قال: ألمْ أرفعْ قَدْرَك وأنت خامِلٌ، وأُسَيِّرْ ذكرَك وأنتَ هامِلٌ، وأُلْبِسْك من نِعَم اللّه تعالى وَنِعَمي ما لم أجدْ عندك طاقةً لِحَمْلِه، ولا قِياما بشكره: فكيف رأيتَ اللّهَ تعالى أظهرَ عليك وردَّ كيدك إليك!

قال: يا أميرَ المؤمنين، إن كنتَ قلتَ هذا بتيقُّن وعلم، فإنّي مُعْتَرِفٌ. وإنْ كان بسعايةِ الباغين ونمائمِ المُعاندين فأنت أعلمُ بأكثرها. وأنا عائذٌ بكَرَمِكَ وعميمِ شرَفِك.

قال: لولا الحسبُ في دمِك لألْبَسْتُك قميصاً لا تَشُدُّ عليه أزراراً.

ثم أمر به إلى السجن، فتولّى وهو يقول: الوفاءُ يا أميرَ المؤمنين كَرَمٌ، والمَوَدَّةُ رَحِمٌ، وما على العفو ندم، وأنت بالعفو جديرٌ، وبالمحاسن خليق.

لقد ذكرنا فيما مر: أن المحاورات والمناظرات يغلبُ عليها الاستعطاف، وندَرَ أن يصدرَ هذا الإستعطاف وقد تماسك صاحبه، وتعالى عن استجداء العفو بلهجة استسلامية متهالكة. فلا غرو في ذلك، فالإنسان ينسى من يكون في تلك اللحظات، التي لا يعلمُ إنْ كانت ستمتدُّ به لحظاتٍ أخرى، أم ستكون آخر ما تبقّى من عهده بالدنيا! إلاّ أن الأمر لا يخلو من حالات جدّ نادرة، يقف فيها المتهم رابط الجأش، قوي الشكيمة، مسيطراً على نفسه ولفظه، يرد عن نفسه التهم بجرأة تكاد لا تعرف في مثل هذه المواقف.

مثال ذلك ما روي(٨٨): أن موسى الهادي سخط على بعض كتابه -لم يسم الكاتب- فجعل يقرّعه بذنوبه ويتوعده،

فقال له: يا أميرَ المؤمنين، إن اعتذاري بما تقرِّعُني به ردٌّ عليك، وإقراري بما ابلغك يُوْجِبُ ذنباً عليّ لم أجْنِه، ولكني أقول شعراً:

فإنْ كنتَ ترجو في العقوبةِ راحةًفلا تَزْهَدَنْ عندَ المُعافاةِ بالأَجْرِ

وما كان من المهدي -وقد اقتنع بجوابه، وشخصيته- أن عفا عنه وأمر بألا يُعرض له، وأحسن إليه.

ومِنْ المناظرات التي وقعنا عليها في نصوص «أدب السجون»، تلك المناظرة التي تبادل الحوارفيها الرشيد وعبدالملك بن صالح الهاشمي. فكلاهما كان خطيباً مفوّها، بلغياً فصيحاً.

فالرشيد كان من أبلغ الناس في أيامه، وكان يكثر من كتابة التوقيعات في كتبه إلى عماله. وكان يقول في تعريفه للبلاغة بأنها «التباعد عن الإطالة والتقرب من معنى البُغْية، والدلالةُ بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى»(٨٩). ولم يكن عبدالملك بن صالح بأقلّ منه بلاغةً ولا أدنى فصاحة: فقد كان خطيباً وشاعراً مجيداً. يقول الخبر الذي أورد هذه المناظرة(٩٠):

دعا الرشيد عبدَالملك بن صالح، وكان معتقلاً في حبسه، فلما مثل بين يديه، التفت إليه، وكان يُحدِّثُ يحيى بن خالد بن برمك وزيره، فقال متمثلاً:

أُريدُ حياتَـــه ويُـــريدُ قَتْـــلي عذيرُك من خليلك من مُرَاد(٩١)

وقال: «يا عبدَالملك، كأني أنظرُ إلى شؤبوبها قد هَمَعَ، وإلى عارضها قد لَمعَ، وكأني بالوعيد قد أَوْرى، بل أَدْمى، فأبرزَ عن براجمَ بلَا معاصمِ ورؤوس بلا غلاصم»(٩٢). فمهلاً بني هاشم، فبي واللّه سَهُل بكم الوعر، وصفا لَكُم الكَدَرُ، وأَلْقَتْ إليكُم الأمورَ أزمَّتَها فتدارَكْتُكُم من حلولِ داهيةِ نارٍ خَبُوطٍ باليدِ والرِّجْلِ.

فقال عبدالملك: أفذّاً أتكلم أم توأما؟

قال: بل فذا

قال: اتق اللّهَ يا أميرَ المؤمنين فيما ولاّك، واحفَظْه في رعاياك التي استرعاك، ولا تجعَل الكُفْرَ بمَوْضع الشُّكر، والعقابَ بموضع الثواب. فقد واللّه سَهَّلْتُ لك الوعور، وجَمَعْتُ على خوفِك وَرجائِكَ الصدورَ، وشَدَدْتُ أواخيَ ملكِكَ بأوثقَ مِنْ رُكْنٍ يلَمْلَم، وكنت لك كما قال أخو بني جعفر بن كلاب (يعني لبيدا).

ومقـــام ضيـــق فرّجتُـــه بلســـان وبيـــان وجـــدل
لو يقـــوم الفيل أو فيّالـــه زلّ عن مثل مقامي وزحل(٩٣)

فأدناه من مجلسه، وقال: لقد نظرتُ إلى موضعِ السيفِ من عاتقِه مرارا، فنعفو عن قتلِه إبقاءً على مثله».

يصدق على كلام عبدالملك بن صالح هذا وصف عبيد بن مالك لكلام الحسن بن عمران، الذي قاله للرشيد، وقد دخل عليه يرسف في قيوده(٩٤). قال فيه عبيد: «هذا أجزل كلام سُمع لخائف، وهذا ما كنا نسمعه عن الحكماء: أفضل الأشياء بديهةُ أمن وردت في مقام خوف؛ ذلك أن عبدالملك بنى كلامه -كما يتضح- على صدق العبارة، وقوة دلالتها على معناها بدقة متناهية، فكان «كلامه مقبولا في الأذن، موافقاً لحركات النفس. مطابقاً لطبيعة الفكرة»(٩٥)، لهذا وقع كلامه موقعه في نفس الخليفة، ولاقى صدىً ايجابياً عنده، فكان أنْ عفا عنه.

ما وجدناه في مناظرة الرشيد وحواره مع عبدالملك بن صالح من ردٍّ قوي، ورباطةِ جأش

وقوة شكيمة نجدُه في مناظرة أخرى دارتْ بين يزيد بن مَزْيدَ الشَّيْباني وحَجَر بن سليمان الحرّاني، تَرينُ عليها صفاتهُ النفسية ذاتُها التي خاطب بها يحيى بن خالد في رسالته التي ذكرناها في موضع سابق(٩٦):

لما ولي يزيد بن مزيد الشيباني أرمينية، بعث إليه -أي إلى حجر- فأمر فشُقَّتْ ثيابُه، وقال: واللّهِ لأُزيلَنَّ لحمَك وعَصَبَك عن عظمِك. ولا واللّهِ إلاّ لأُشفيَ نفسي منك.

فقال: لا تعجَلْ أيها الأمير، فإن تَكُنْ يدُك عاليةً علينا، فيدُ اللّهِ أعلى فانظر إلى من فوقَك ولا تنظرْ إلى من تحتَك، فكلُّ ربٍّ من العباد مربوبٌ لذي القوة المتين الذي يَنْتَقِمُ إذا شاء في عاجل. أعيذك باللّه أيها الأمير أن تساعدَ غضبَك فتندمَ وخُذِ الفوزَ في الدين والدنيا بالعفو، فإنّ اللّه يقول: «وليعفوا وليصفحوا، ألا تحبون أنْ يغفرَ اللّهُ لكم؟ واللّهُ غفور رحيم» النور:٢٢.

فقال يزيد: أستغفرُ اللّه، واللّهِ إنّا لمربوبون للربِّ العظيم، وإنه ينبغي لنا إذا أطالنا على من دوننا أنْ نذكرَ مَنْ فوقَنا. خلّوا عنه وهاتوا له كُسوة.

قال عُوانة بن الحكم الكَلْبي -والد عياض بن عُوانة- «شهدته يتكلمُ بهذا الكلام وهو مُبْتَلُّ الريق، سهلُ الكلام، سالمٌ من السقَطِ، كأنما يقرؤه في صحيفة(٩٧).

لقد أوجز عُوانة بهذه الكلمات سلامةَ لغةِ حجر، وبراعتَه الأدبية، وقدرتَه في السيطرة على كلامه، وفي التأثير في سامعيه. فهو بلا شك أديب كبير(٩٨)، «والأديب الكبير هو من كانت قواه العقلية في الدرجة الأولى، وكانت قدرته البيانية موازنة لها، فالتوازن بين القوتين أعظمُ شرط للكمال في الأدب، إذ لا يخفى أنَّ مَنْ كانت قواه العقلية في الدرجة العليا مثلا، وكانت قدرته على البيان غير موازنة لها، أي في الدرجة الوسطى، ذهب أكثر انفعالاته النفسية ضياعاً، ولم يستطع -بقصور قدرته البيانية- تصويرها حق التصوير، ولا نقلها بتمامها إلى نفس المخاطب»(٩٩) وحجر كان ذاك الأديب الكبير. يُضاف إلى ذلك، أنه «عرف أقدار المعاني، واستطاع أن يوازن بينها وبين أقدار مستمعيه (وهو هنا الأمير)، وبين أقدار الحالات (وهي هنا موقف المحاسبة)، فجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حال من ذلك مقاماً»(١٠٠) وكانت النتيجة أن تحقق له ما أراد من عفوالأمير.

ومما لا شك فيه أن مِنْ أفضل الكلام بديهة أَمْن وردت في مقام خوف -كما قال عبيد بن مالك. ومما لا شك فيه أيضاً أنَّ أكثرَ هذا الكلام وَقعاً، وأوقعَه تأثيراً ما كان منه شعراً في مثل هذا المقام، وبخاصة، إذا أودعه صاحبُه خلاصة نفسه، ومهجة قلبه، وعصارة روحه، في موقف يتوقع أن تنفطر فيه المهج فزعا، وتنهار فيه النفوس رهبة وهلعا. من ذلك، ما حكى الحسن بن محمد، قال:(١٠١)

قال أحمد بن أبي دؤاد: ما رأيتُ رَجُلاً قَطُّ نزلَ به الموتُ وعاينَه فما أدْهَشَه ولا أذهلَهُ، ولا أَشْغَلَهُ عما كان أراده وأحبَّ أن يفعلَه حتى بلغَه وخلّصه اللّه تعالى من القتل إلاّ تميمَ بنَ جميل الخارجي. فإنه كان تغلّبَ على شاطىء الفرات، فأُخذ، وأُتي به إلى المعتصم بالله، فرأيته بينَ يديه، وقد بُسط له النّطع والسيف، فجعل تميم ينظر إليهما، وجعل المعتصم يُصَعّد النظر فيه ويصو به. وكان تميم رجلاً جميلاً جسيماً. فأراد المعتصم أن يستنطقَه لينظرَ أين جنانهُ ولسانُه من منظره ومخبره.

فقال المعتصم: يا تميمُ، تَكَلّم. إن كان لك حجةٌ أو عذرٌ فأبده.

فقال: أمّا إذا أذن أميرُ المؤمنين بالكلام، فأقول: الحمدُ لله الذي أحسنَ كلَّ شيءٍ خَلَقَه، وقد خلق الإنسانَ من طين، ثم جعلَ نسله من سلالة من ماء مهين. يا أميرَ المؤمنين، جبرَ اللّهُ بك صدعَ الدين، ولمَّ شَعْثَ المسلمين، وأخْمَدَ بك شهابَ الباطل، وَأَوْضَح نَهْجَ الحقّ. إن الذنوب تُخرس الألسنة، وَتَعْمي الأفئدة. وأيمُ الله، لقد عَظُمَت الجريرةُ وتقطعت الحُجَّةُ، وكَبُر الجرمُ، وساءَ الظَّنُّ، ولم يبقَ إلا عفوُك أو انتقامُك. وأرجو أن يكون أقربُهما مني وأسرعُهما إليّ أولاهما بأمامتك، وأشبههَما بخلافتك، وأنت إلى العفو أقربُ، وهو بك أشبهُ وأليَقُ. ثم قال شعراً:

أرى الموتَ بين السيفِ والنّطع كامناً ... يُلاحظني من حيثما أتلفَّتُ

وأكثرُ ظنّي أنّك اليومَ قاتلي ... وأيُّ امرىءٍ مما قضى اللهُ مُفلتُ

وأيُّ امرىءٍ يُدلي بعذرٍ وحُجَّةٍ ... وسيفُ المنايا بين عينيه مُصْلَتُ

يعزُّ عليَّ الأوسِ بن تغلبَ مَوْقِفٌ ... يُهَزُّ عليَّ السيفُ فيه وأسكتُ

وما جَزَعي من أن أموتَ وإنني ... لأعلمُ أنَّ الموتَ شيءٌ مؤقَّتُ

ولكنَّ خلفي صبيةً قد تركتُهم ... وأكبادُهم من حَسْرَةٍ تَتَفَتَّتُ

كأني أراهم حين أُنعى إليهمُ ... وقد خَمَشوا تلك الوجوهَ وصوّتوا

فإن عشتُ عاشوا خافقين بغبطةٍ ... أذودُ الأذى عنهم، وإن متُّ موّتوا

فكم قائلٍ: لا يُبعد اللهُ دارَه ... وآخرُ جذلانُ: يُسرُّ ويشمت

فتبسم المعتصم، ثم قال: أقولُ كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من البيان لسحرا. ثم قال: يا تميمُ، كاد واللهِ أن يسبقَ السيفُ العذل. اذهب، فقد غفرتُ لك الهفوة، وتركتُك للصبيةِ، ووهبتُك للهِ ولصبيتِك.

ثم أمر بفك قيوده، وخلع عليه، وعقد له على ولاية شاطىء الفرات، وأعطاه خمسين ألفا.

لقد أبدى تميم، في موقف المواجهة هذا توبته، واعترف بذنبه، واعتذر عنه بألطف اعتذار، بكلام جميل واضح: فثمّة مزاوجة، وبعد عن السجعة، وثمة كلمة حلوة جزلة لا خشونة فيها ولا توعير، بنفس هادئة وعقل متزن وبيان ساطع، واستعطف شعراً، لكن بهدوء واتزان. ولم يستعطف لنفسه بل لصبيته؛ فكان أن أصاب شغاف قلب الخليفة وحرّك فيه عاطفة الأبوة؛ فعفا عنه لهم، وأطلقه ليرجع إليهم.

الاستسلام للقضاء والقدر واضح في أبيات تميم، والشاعر ليس لديه اعتراض على ذلك؛ لأن ما قضى اللهُ لا بد واقع، وهو لا يجزع من الموت؛ لأن الموت أمر محتوم، ولكنه يجزع لأنه سيخلّف وراءه صبية صغاراً لا معيل لهم غيره. فلا أوقع من أن يتذرع الإنسان بهذا ليكون سببا للعفو. وهذا ما كان.

لقد أدرك تميم في كلامه عواطف السامعين، وأحوالهم النفسية، والخليفة منهم: فاختار ما يلائم تلك العواطف وما يثيرها. وهذه مطابقة ليس من اليسير تحقيقها، ولكنه استطاع ذلك بفطنته وذكائه. فقد عرف بهما معا «القوى التي يمكن أن تستثار في الإنسان، -والخليفة إنسان- وهذه القوى هي: (قوى العقل والشعور والإرادة)، واستطاع أن يختار لها المعاني المناسبة التي لا تجل عن الفهم»(١٠٢)

وأوجز تميم بن جميل في أبياته وصفاً لموقف الموت الذي وقفه أمام الخليفة: فالسيف قد سُلَّ، والنطع قد نُشر، والقتل حالٌّ لا محالة، ولن يستطيع المرء أن يفلت منه: لا بعذر ولا بحجة، وهو يرى السيف قد صُلّتَ بين عينيه سينقض عليه. ومع هذا، وجد في نفسه بقية مِنْ قوة: فاستجمع شتاتها، وشحذ من بلاغته سنانها، فكان منه نثرٌ وشعرٌ، وكانا بياناً ساحراً وقعا في نفس الخليفة موقعا حسنا، فكان أن أطلقه كما مر.

وشبيه بموقف تميم بن جميل ذاك موقف آخر حدث في عهد المتوكل. إذ «يُروى عن الجاحظ أنه قال: ما رأيت قلباً أجمع من محمد بن البعيث(١٠٣)، وقد وقف السياف على رأسه ليضرب عنقه فقال له المتوكل: يا محمدُ، ما احَمَلَكَ على ما صنعت؟

قال: الشقوةُ يا أميرَ المؤمنين، وإني لي بك لظنّين. أولاهما بك أسبقهما إلى قلبي وهو العفُو عن عبدِك. وأنشأ يقول:

أبى النـــاسُ إلاَّ أنّـك قاتـــلي ... إمامَ الهدى، والعفوبالحُرِّ أجمـلُ

وهـــل أنا إلا جبِلّةٌ مـــن خطيئة ... وعفـــوُك مـــن نـــورِ النبوةّ يَجْمُلُ

تضاءَل ذنبـــي عند عفوك قِـلةً ... فَمَنْ لي بفضلٍ منك، والمنُّ أفضلُ

لأنك خيرُ السابقـــين إلـــى العُلا ... وأنك خيـــرَ الفعلتـــين ستفـــعل

فقال المتوكل: أفعلُ خيرَهما، ارجع إلى منزلك.

وكان محمد بن البعيث من الذكاء بحيث تذرَّع لذنبه بطبيعة البشر الخطّاءة. وهو-لذلك- يلوذ بالخليفة ليعفو عنه لأنه نور النبوة، ودائم السبق إلى الفضائل.

ثالثاً : الخواطر ومناجاة النفس(١٠٤)

«إن أصل كل تأليف أدبي هو تجربة مارسها المؤلف. وهذه التجربة قد تكون من أي نوع كان. وقد تكون مما يصادف المؤلف في حياته... ولكنها على كل حال يجب أن تكون تجربة ملكت عليه حسّه، وحملته على الكلام... ولكن، يجب أن يكون في التجربة أمر غير مألوف إذا اضطر صاحبها لأن يتكلم بإتقان وبراعة، وأن ينقل تجربته إلى فكر الآخرين»(١٠٥).

وأي تجربة أكثر وقعاً، وأوضح أثراً في نفس الإنسان من تجربة السجن؟! فليس أصعب على الإنسان من أن تحتجز حريته، وتُستلب إرادته، ويصبح مصيره في يد المجهول، فلا يدري: هل هو الموت قتلاً بالسيف، أم بعد تنكيل بقطع الأطراف، أم سيكون تحت ثقل الحديد الأصم؟ إنها تجربة ليس بعدها تجربة: تُنطق الأخرس فيتكلم، وتُسمع الأصم فيسمع. إنها تملك على الإنسان إحساسه وتحمله على الكلام وأي كلام! لأنها تجربة، فيها من الأمور غير المألوفة ما يشيب لهولها الصغير ويفزع من بطشها الكبير.

لهذا، كان السجن عند من ابتُلي به بمثابة القبر، يرى فيه المحبوسُ شخصَ ملكِ الموت مراتٍ ومرات: مع كلِّ عثرة، ومع كلِّ زفرة(١٠٦). لهذا كله، ترى المحبوسَ يناجي نفسه، متأملا بها، وبما حوله من دنياه.

رُويت أشعارٌ ليحيى بن خالد البرمكي وقت التضييق عليه أيام الرشيد، من ذلك قوله:(١٠٧)

قطعتُ منكِ حبائلَ الآمالِ ... وأَرَحْتُ من حلٍّ ومن ترحالِ
ووجدتُ بردَ اليأسِ بين جوانحي ... فحَطَطْتُ عن ظَهْرِ المَطِيِّ رحالي
فالآنَ يا دنيا عرفتُك فاذهبي ... يا دارَ كلِّ تشتُّتٍ وزوال
والآن صار ليَ الزمان مؤدِّباً ... فغدا وراح عليَّ بالأمثال

تعكس الأبيات معاناة صاحبها واضطراب أعماقه، كما تشف عن إحباط شديد، ويأس من هذه الدنيا، التي قلبت له ظهر المجنّ، فترجَّلَ عنها، بعد أنْ كان معتلياً سطوتها، وغلبَته بعد أن كان ممسكاً بخطامها وقد سلُس له قيادها، فتجلّتْ له حقيقتها، وعرف زيفها وغدرها.

ومن ذلك -أيضاً- أبياتٌ، قيل إنَّ محمد بن عبدالملك الزيات كتبها على حائط البيت الذي كان فيه من قبل التنور، ينعى فيها نفسه إلى نفسه وأهله، ويصف معاناته: الجسدية والنفسية،

تحت وطأة الحبس والتعذيب(١٠٨).

لعـــبَ البلى بمعالمـــي ورسومـــي ودُفنـــتُ حيَّـــا تحـتَ رَدْم غموم
وشكوْتُ غمي حين ضِقْتُ ومن شكا كَـرْباً يَضيـــقُ به فغيـــرُ مَلُوم
لزم البلـــى جسمـــي وأَوْهَنَ قوَّتي إن البـــلى لَمُـــوَكَّلٌ بِـلُـــزوم
أبُنَيَّـــتي، قِـــلّي بكـاك واصبري فإذا سَمِـعْـــتِ بهالـــكٍ مغمـــوم
فانعَـــيْ أبـاك إلى نِساه واقعـدي فـي مـأتم يُبـــكي العيـونَ وقومي
قولـــي لـــه يا غائبـــاً لا تُرتَجى حتى القيـامـــة مخبـــراً بقدومي
يا عـــينُ، كنـــتِ وما أُكَلِّفُـك البكا حتـــى ابتليت فـإن صَبَرْت فدومي

وشبيه بهذا أبيات لابن المعتز، قيل إنه قالها لمّا سُلّم لمؤنس الخادم ليهلكه(١٠٩)

يا نفـسُ صبراً لعلَّ الخيرَ عقباك خانَتْكِ من بعـدِ طـولِ الأمنِ دنياك
مرَّتْ بنـــا سَحَراً طيرٌ فَقُلْتُ لها طوبـاك، يـا ليتني إيّـــاك طوباك
إن كان قصدُك شوقاً بالسَّلامِ على شاطى الفراتِ ابلغي إن كان مثواك
مِنْ مُـــوْثِقٍ بالمنايـــا لا فِكـاكَ له يبـــكي الدمـــاءَ علـى إلفٍ له باكي

إلى أن قال:

أظُنّه آخـــرَ الأيامِ مـــن عُمُـري وأوشـــكَ اليَـــوْمَ أن يَبْـكي له باكي

الحكيم هو ذاك الذي يرى خلف سطوح الأشياء، ويضع نفسه هناك، وينظر إلى الوراء ويوازن ويقلب الأمور، ثم يخرج بحكمة تكاد تطابق واقع كل إنسان. لقد كان هذا دأب أولئك المسجونين -ممن عثرنا على آثار لهم في هذا الأدب- انقلب معظمهم حكيما! وسجل حكمته شعراً بثّ فيه أساه وحسرته، وسطر خلاله حزنه ولوعته. من ذلك بيتان لابن الزيات، يقول فيهما(١١٠):

هـــي السبيـــلُ فَمِـــنْ يَوْم إلى يوم كأنـــه ما تُريـــك العـينُ في النوم
لا تجـــزعَـــنْ رويـــدا إنّهـا دُوَلٌ دنيـــا تَنَقَّـــلُ مـــن قـومٍ إلى قوم

إنها فلسفةُ هذه الحياة توصل إليها أخيراً ابن الزيات في حالة تأمل بها فكأنها حلم، وهي لا تدوم بمسراتها لأحد؛ لأنها دول: فمرة لهذا وأخرى لذاك. وكأني به قد وصل إلى اللاجدوي من هذه الحياة. فلِمَ -إذن- كان ذلك الجهد المضني فيها، ولأي شيء كان كل ذاك الصراع؟ ألم يذهب كلُّ شيء أدراج الرياح!

وقريب من هذا أبيات لابن المعتز قالها في السجن(١١١).

تعلمتُ في السِّجْنِ نسجَ التِّكَـــك ... وكنـــتُ امرءاً قبلَ حَبْـــسي مَلِكْ
وقُيِّـدْتُ بعـــدَ ركـــوبِ الجيـــادِ ... ومـــا ذاك إلا بِـــــدَوْرِ الفَلَـكْ
ألَمْ تُبْصِـــــرِ الطيـرَ في جـوِّهِ ... يكـــادُ يُلامِـــــسُ ذاك الحَبَكْ
إذا أبصَـــرتْهُ خُطـوبُ الزمـــا ... نِ أَوْقَعَتْـــهُ فـــي حِبـالِ الشَّرَك
فهـــا ذاك مـــن حالِقٍ قد يُصادُ ... ومِـنْ قَعْـــرِ بحـرٍ يُصاد السمك

وعلى الرغم من هذا كله، فإننا لا نعدم أن نجد واحداً ممن نكب بالسجن وعذاباته لم يفقد الأمل تماماً في الخروج مرة أخرى إلى العالم الخارجي فهو يردد هذه الأمنية في شعره متفائلاً، رغم ظلامات السجن وأثقال الحديد. من هؤلاء: ابراهيم بن المدبر. قال وهو محبوس(١١٢).

تَسَلَّ فليس طولُ الحَبْسِ عـــــارا ... وفيـــــه لنا مـــن اللّهِ اختيـار
فلولا الحَبْسُ مـا بَلِي اصطبـــارٌ ... ولـولا اللَّيْـلُ مـا عُـرف النهـار
ومـا الأيّـــامُ إلا مُـعْـقِـبـــــاتٌ ... ولا السـلطانُ الا مستعـــارُ
سَـيُـفْـرِجُ مـا تـــرينَ إلى قليلٍ ... مـقـــدَّرَةٌ وإن طـــالَ الإسـار

ويقول من قصيدة أخرى في هذا المعنى(١١٣):

لا تُؤْيِسَنَّـــــك من كريـــمٍ نبـــوةٌ ... فالسيـــفُ ينبـو وهو عَضْبٌ باترُ
هـــذا الزمـــانُ تسومُنـــي أيامُـه ... خَسْفـــاً، وهـــا أنـذا عليه صابر
إن طـــالَ ليلـــي في الإسـارِ فطالما ... أفنيـــتُ دهْـــرا ليلُـــه مُتَقاصِرُ
والحبـسُ يَحْجُبُنـــي وفـــي أكنافـه ... منـي علـــى الضَّـــرّاءِ ليثٌ خادِر

ولكنه ما يلبث أن يُنَفِّسَ عن حزنه، متعجباً كيف احتواه وهو الجواد الكريم:

ألم يحنْ الوقتُ أنْ تتقطعَ الجدرانُ لكي ينطلق منه إلى الحرية!!

عجـــبٌ له كيفَ التَقَتْ أبوابُـهُ والجـــودُ فيـــه والغَمَامُ الباكِرُ
هـــلاّ تقطّـــع أو تصدَّع أو وَهى فعذرتُـــــه، لكنَّـــهُ بـــيَ فاخر

وعلى الرغم من النغمة الهادئة التي ترينُ على الأبيات -أو كما يظُن- إلا أن هناك بعض الكلمات فيها تستوقفنا؛ لأنّها تشفُّ عن موجات من الغضب تلوح من تحتها. وليست الكلمات: هلاّ، تقطّع، تصدّع إلا دليلاً قوياً على تلك الثورة العارمة، المضطرمة في نفسه، وهي لا تعدو أن تكون متنفساً ينفث من خلالها غضبه وحنقه ويأسه. ولكنه لا يجرؤ: فيبقى ظاهر الأبيات هادئاً ساكناً، ويزيد بأن يعمد -في أبيات تالية- إلى التخفيف من أثرها معزياً نفسه، باعثاً لها على التصبّر، فيقول:(١١٤).

هو الحبْسُ ما فيه عليّ غضاضـــةٌ وهل كان في حبسِ الخليفةِ من عارِ
ألستِ تَرَيْنَ الخمْرَ يَظْهَرُ حسنهـــا وبهجتها بالحَبْسِ في الطِّينِ والقارِ
ومـــا أنـــا إلا كالجـــوادِ يصونُـــه قدِمُـــه للسَّبْـــقِ في طـــيّ مضمارِ
أو الـــدرةِ الزهـــراءِ في قعرِ لّجـةٍ فـــلا تُجْتَـــلى إلا بهَـــوْلٍ وأخطـــارِ
وهـــل هـــو إلا منزلٌ مثـل منـزلي وبيـــتٌ ودارٌ مثـــل بيـــتيَ أو داري
فلا تُنكري طولَ المدى وأذى العِدى فـــإنَّ نهـــاياتِ الأمـــورِ لإقصارِ
لعـــلّ وراءَ الغيـــبِ أمـــراً يسرُّنا يقـــدِّره فـــي علمِـــه الخالقُ الباري
وإنـــي لأرجـــو أن أصـــولَ بجعفرٍ فأهضـمَ أعـــدائـــي وأدركَ بالثـــارِ

لقد حاول ابراهيم بن المدبر - كما يدل ظاهر الأبيات- أن يبدو هادىء الروح ساكن النفس وهو وراء جدران السجن القاتمة. بل حاول جاهداً أن يخفف من روْعه، وأن يقنع نفسه بهذا المكان. ورفضُ الشاعر للسجن -وإن لم يطفُ فوق السطح- إلا أنه يُلمح من خلال الأبيات. فالرفض والغضب والثورة والمعاناة يشعر بها القاريء، وربما أومأت (بقرونها) من خلال هذه الأبيات، حتى في أكثرها هدوءاً:

- فالشاعر يومىء إلى سوء حاله في السجن باستعماله كلمتي (الطين والقار). ألا يوجد في السجن مثل ذلك؟
- وهو يتلمظ غيظا، ويتحيّنُ الفرصة لينطلق من حبسه كما ينطلق الجواد من عقاله هائجاً بعد أن يُترك له العنان ليمضي في مضمار السباق يطويه طيا.
- وهو يومىء -كذلك- إلى الظلمة والأهوال التي تحيق به في السجن، في معرض مقارنة

نفسه بالدرة الفاخرة التي تُصاد في قاع البحار.

- ثم يعود فيهدىء من رَوْعِه، ويعزي نفسه بأن لا فرقَ بين السجنِ وبين بيته! وهل يُعقل هذا بعد كلِّ الذي ألمحَ إليه في الأبيات السابقة؟

- ولَم -إذن- يطلبُ ممن يخاطبُها أن تنكر أذى العدى؟ ولم تلك الأمنية في البيت ذاته، أن تنجلي الأمور؟ ولم يرجو أن لا يكون ذلك بعد طول وقت؟

-وتلك الأمنية الأخيرة أن يصول بجعفر (المتوكل) ليدرك ثأره من أعدائه؛ أليس ذلك لأنه كان يتميز غضباً، وأنه يكاد يتفجر غيظاً بين جدران ذاك المكان المقيت؟

لقد طال حبس ابراهيم بن المدبر بعد ذلك، فلم يكن لأحد في خلاصه منه حيلة -مع كل ذاك التفاؤل المصطنع في الأبيات- حتى تخلصه محمد بن عبدالله بن طاهر(١١٥).

ثبت المصادر والمراجع

١- ابن الأبار، أبو عبيد الله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي.
إعتاب الكتاب، تحقيق صالح الأشقر. دمشق: ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١م.

٢- إبراهيم بن المدبر.
الرسالة العذراء. تصحيح وشرح. د.زكي مبارك. الطبعة الثانية: دار الكتب، ١٣٥٠ هـ، ١٩٣١م.

٣- الآبي، أبو سعد منصور بن الحسين.
نثر الدر، تحقيق: محمد علي قرنة، ومراجعة علي محمد البجاوي. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠.

٤- ابن أبي عون، أبو اسحاق إبراهيم بن محمد.
الأجوبة المسكتة. تحقيق ودراسة وتقديم د.مي أحمد يوسف: برلين: دار شفارتز للنشر، ١٩٨٨.

٥- أحمد حسن الزيات.
دفاع عن البلاغة. القاهرة: مطبعة الرسالة، ١٩٤٥م.

٦- أحمد محمد عطية.
أدب البحر. القاهرة: دار المعارف، ١٩٨١م.

٧- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسن.
الأغاني. تصحيح أحمد الشنقيطي. القاهرة: مطبعة التقدم. د.ت.

٨- أومان.
الإمبراطورية البيزنطية. ترجمة مصطفى طه بدر. القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٥٣.

٩- بدوي طبانة.
البيان العربي، بيروت: دار العودة، ١٩٧٢.

١٠- أبو بكر الخوارزمي.
رسائل أبي بكر الخوارزمي، تقديم: نسيب وهبة الخازن. بيروت - دار مكتبة الحياة، ١٩٧٠.

١١- البيهقي، ابراهيم بن محمد.

المحاسن والمساوىء، قدم له وحققه: الشيخ محمد سويد. بيروت: دار إحياء العلوم ١٩٠٨هـ-١٩٨٨م.

١٢- التنوخي، القاضي المحسن بن علي.

- الفرج بعد الشدة. تحقيق: عبود الشالجي. دار صادر، ١٣٨٨ هـ-١٩٧٨م.

- المستجاد من فعلات الأجواد. تحقيق: محمد كرد علي. دمشق: مطبوعات المجمع العلمي العربي، ١٩٧٠م.

- نشوار المحاضرة. عبود الشالجي، بيروت: دار صادر، ١٣٩١هـ-١٩٧١م.

١٣- الثعالبي، أبو منصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل.

- تحفة الوزراء (المنسوب إليه). تحقيق: حبيب علي الراوي وابتسام مرهون الصفار. بغداد: مكتبة العاني، ١٩٧٧م.

- غرر السير. طهران، ١٩٦٣م.

- يتيمة الدهر. الطبعة الأولى. القاهرة: مكتبة الصاوي، ١٩٥٢٢هـ-١٩٣٤م.

١٤- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر.

البيان والتبيين. تحقيق: عبدالسلام هارون. ا لقاهرة: ١٩٦١.

١٥- الجاجرمي، أبو المعالي المؤيد بن محمد.

نكت الوزراء. تحقيق: نبيلة عبدالمنعم داود. بغداد: مركز إحياء التراث العربي، ١٩٨٤.

١٦- الجهشياري، أبو عبدالله محمد بن عبدوس.

- الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، الطبعة الأولى، القاهرة: ١٣٥٧هـ-١٩٣٨م.

- نصوص ضائعة من كتاب الوزراء، جمع ميخائيل عواد. بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٥.

١٧- ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن.

- أخبار الأذكياء، الطبعة الثالثة. بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٩.

- المصباح المضيء في خلافة المستضيء. تحقيق: ناجية إبراهيم، بغداد: وزارة الأوقاف، ١٩٧٦م.

١٨- الحصري، أبو اسحاق إبراهيم بن علي القيرواني.

زهر الآداب وثمر اللباب، ضبط وشرح: د.زكي مبارك، الطبعة الثانية. د.ت.

١٩- ابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد بن علي.
التذكرة الحمدونية، تحقيق: د. إحسان عباس. بيروت: معهد الإنماء العربي، ١٩٨٣م.
٢٠- أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد.
البصائر والذخائر.
- المجلد الثاني - القسم الثاني. تحقيق: د. إبراهيم الكيلاني، دمشق: مكتبة أطلس والإنشاء، ١٩٦٤م.
- الجزء السابع. تحقيق: د. داود القاضي. تونس-ليبيا: الدار العربية للكتاب ١٩٧٨م
٢١- ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد.
وفيات الأعيان. بإشراف: د. أحمد فريد الرفاعي. القاهرة: مطبعة البابي الحلبي، ١٣٥٥هـ-١٩٣٦م.
٢٢- رنسيمان، ستيفن.
الحضارة البيزنطية. ترجمة: عبدالعزيز توفيق جاوير. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦١م.
٢٣- السباعي السباعي بيومي.
تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي. القاهرة، ١٣٥٤هـ-١٩٣٥م.
٢٤- الصابي، هلال بن المحسّن.
الوزراء، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٨م.
٢٥- صلاح الدين المنجد.
بين الخلفاء والخلعاء. الطبعة الثانية. بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٧٤م.
٢٦- الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى.
أدب الكتاب. صححه وعلق حواشيه: محمد بهجة الأثري، القاهرة، ١٣٤١هـ.
٢٧- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير.
تاريخ الرسل والملوك أو: تاريخ الطبري. تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٧.
٢٨- ابن الطقطقى، محمد بن علي بن طباطبا.
الفخري في الآداب السلطانية، مراجعة: محمد عوض إبراهيم وعلي الجارم، الطبعة الثانية، القاهرة: مطبعة المعارف، ١٩٣٨م.

٢٩- ابن طيفور. أبو الفضل أحمد بن طاهر الكاتب.
كتاب بغداد. تصحيح: محمد زاهد بن الحسن الكوثري. القاهرة: ١٣٦٨هـ-١٩٤٩م.
٣٠- عادل محيي الدين الآلوسي.
الرأي العام في القرن الثالث الهجري، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٧.
٣١- العباسي، عبدالرحيم بن أحمد.
معاهد التنصيص. بيروت: عالم الكتب، ١٩٤٧م.
٣٢- عبدالحليم عباس.
البرامكة في التاريخ. عمان: ١٩٥٦م.
٣٣- ابن عبدربه، أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي.
العقد الفريد، الطبعة الثانية، القاهرة: ١٣٤٦هـ-١٩٢٨م.
٣٤- ابن عمران العبدي. أبو الحسن محمد بن عمران العبدي المعروف بالرقام البصري.
العفو والاعتذار، تحقيق: د. عبدالقدوس صالح. الرياض: جامعة الإمام أحمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
٣٥- كرومبي، لاسل آبر.
قواعد النقد الأدبي، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٤.
٢٦- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي.
مروج الذهب ومعادن الجوهر. راجع أصوله: محمد محيي الدين عبدالحميد، بغداد: دار الرجاء، د.ت.
٣٧- معروف الرصافي.
دروس في تاريخ اللغة العربية، بغداد: مطبعة دار السلام، ١٩٢٨م.
٣٨- ياقوت الحموي، شهاب الدين بن عبدالله.
معجم الأدباء، القاهرة: مطبوعات دار المأمون، ١٣٥٥هـ-١٩٣٦م.
٣٩- اليعقوبي، أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح.
- كتاب البلدان، الطبعة الثالثة، النجف: الطبعة الحيدرية ١٩٥٧.
- تاريخ اليعقوبي. بيروت: دار صادر ١٩٦٠.

١- أنظر: رنسيمان: الحضارة البيزنطية. ص١٢٠.

أنظر: أومان : الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٣٨.

٢- انظر: الثعالبي: غرر السير. ص ٥٨٧-٥٨٩.

٣- ففي أيام المنصور مثلاً، خرج محمد وإبراهيم إبنا عبدالله بن حسن بن حسن بن أبي طالب في البصرة والمدينة والكوفة، عامي ١٤٤ و١٤٥هـ. أنظر أخبار خروجهما في تاريخ الطبري ٥٢٢:٨، في أحداث العامين المذكورين.

ومثل ذلك ما كان من خروج يوسف بن إبراهيم الذي يقال له (البرم) في خراسان عام ١٦٠ أيام المهدي، ثم فتنة الأمين والمأمون، وما تبعها من سجن لمؤيدي الأمين، ثم خروج ابراهيم بن المهدي في عهد المأمون، وبعدها ثورة الزنج في عهد المعتمد على الله الخ...

٤- مثال على ذلك: أبو مسلم الخراساني أيام المنصور، والبرامكة أيام الرشيد، والأفشين أيام المعتصم، وإيتاخ في أيام المتوكل. فكل واحد من هؤلاء اتهم بخيانة سيده الخليفة، فأخذ وقتل ومثل بجثته.

من هذه الأسباب: مناوأة السلطة والخروج على إرادتها، والزندقة، واللصوصية، وقطع الطرق وتهم الدعارة والفساد.

أنظر: عادل محيي الدين الألوسي: الرأي العام في القرن الثالث الهجري من ١٩٩-٢٠٣ يضاف إلى ما ذكر: السعاية والنميمة والدسيسة، كما ورد في مناظرة بين المهدي ويعقوب بن داود، منها: «... يا أمير المؤمنين، إن قلت هذا بعلم وتيقن فأنا معترف، وإن كان بسعاية الباغين، ونمائم المعاندين، وأنت عالم ما في أكثرها، وأنا عائذ بكرمك وعميم شرفك».

أنظر المناظرة ا لكاملة، ص (٩٧) من هذه الورقة. وكما ورد في رسالة للخوارزمي، منها:

«قد رأى السيد ما كان من العلانية، حين فوقت نحوي سهامها... وتسلحت بالسعاية، وهي سلاحها الذي به تقاتل، ويدها التي به تطاول. والسعاية سلاح من لا سلاح له، والنميمة كيد من لا كيد عنده، وشر من الساعي من أنصت له، وشر من متاع السوء من قبله». انظر: رسائل أبي بكر الخوارزمي، ص١٧.

٥- صلاح الدين المنجد: الخلفاء والخلعاء، ص ١١٧.

مثال ذلك: محمد بن عبدالملك الزيات وزير المعتصم والواثق، فقد سُجن وصودرت أمواله، ونُهبت دوره وضياعه، وعُذّب إلى أن مات في (التنور) زمن الخليفة المتوكل.

انظر أخباره في: تاريخ الطبري ١٥٩:٩. والبيهقي: المحاسن والمساوىء ص٥٣٢.

ومثله أيضا: ابن الخصيب. وزير المستسعين. (تاريخ الطبري (٢٥٩:٩).

وأبو الصقر وزير المعتمد (تاريخ الطبري ١٠:٢٢).

وأبو علي بن الفرات (الصابي: الوزراء ٣٠-٣٢٨).

وأبو علي بن مقلة أيام الراضي بالله، فقد حُبس وقطعت يده اليمنى، ومكث في الحبس مدة مقطوع اليد (انظر: ابن الطقطقى: الفخري في الآداب السلطانية ص٢٤٠).

ويصدق على هؤلاء جميعاً قول أبي العتاهية -قبل ذلك بزمن- عندما أمر المهدي بجر وزيره أبي عبيد برجله وحبسه: (ديوان أبي العتاهية ص٢٨٨، وابن الأبار: أعتاب الكتاب ص٧٣).

أرى الدنيا لمن هي في يديهِ ... عـــذاباً كلما كَثُرَتْ لديهِ

تُهينُ المُكْرَمــين لهــا بصغــرٍ ... وتُكـرِمُ كلَّ من هانَتْ عليه

إذا استغنيتَ عن شيءٍ فَدَعْهُ ... وخـذ ما أنــت محتاجٌ إليه

٦- عادل محي الدين الألوسي: الرأي العام في القرن الثالث الهجري، ص١٩٩.

٧- انظر رسالة الخوارزمي إلى أحد فقهاء نيسابور، لما هرب من محمد بن ابراهيم، التي يقول فيها «...ولكني عورضت من المحن بما لم يترك لي قلبا يعقل، ولا بنانا يعمل، وأقل ما لحقني غضب الأمير عليّ، وهذه الحالة يفقد بها العقل، ويشيب لها الطفل، ويتوقع معها الموت، بل القتل. ولقد نشبت بين أظفار الخوف، وعقلت بحبالة الحتف، فلا أنا من ورائي آمن، ولا لما أمامي آمل، وما كنت أحسب أني أنظر إلى قبري قبل انقضاء عمري، ولا أني أرى شخص ملك الموت في حياتي قبل أن يجيء وقت وفاتي» (رسائل الخوارزمي، ص ١١٨).

لقد أنطق الخوف الخوارزمي بلواعج النفس، وكشف عن إنسانية الإنسان التي ترهب الموت - وإن كان حقيقة لا بد منها - كل ذلك بشفافية أسلوب، ورقة عبارات بعدت عن التكلف ومالت إلى الترسل، وهي الطبيعة الأصيلة لكل كاتب في أي عصر عاش. ومهما حاول الإغراب في كلامه -كما كانت عادة الخوارزمي في غير هذا المقام، -فمثل هذه المواقف تُعيد الإنسان إلى طبيعته البسيطة: سلوكاً وأسلوباً. وشبيه الإستتار الإقامة الجبرية في المنزل. أنظر (التنوخي: الفرج بعد الشدة ١/١٩٢، ١/٣٩٤).

٨- لن يرد في هذه الورقة شعر لمشاهير الشعراء في العصر العباسي ممن تعرض للسجن، من أمثال: أبي العتاهية، وأبي نواس، وعلي ابن الجهم، والمتنبي، إلا ما اقتضاه المقام لدعم فكرة أو لتوضيح أمر. وستكتفي هذه الورقة بإيراد شعر ونثر «أدب السجون» مما لم يجمع في كتاب، وكان بعيد التناول، كوروده مبثوثا ومنتشراً في كتب كثيرة.

٩- كادت كتب القرنين الثاني والثالث الهجريين أن تكون كتب مجاميع أدبية، وكتب أخبار تخلو

من هذا النوع من الأدب -الذي نحن بصدد الحديث عنه- ذلك أن معظمها كان ذا هدف تعليمي لخدمة علية القوم وأبنائهم، لهذا لم تخرج عن الدائرة الأرستقراطية. وفي ناحية أخرى منها كانت تدور في إطار أدب المجالس (انظر: الأجوبة المسكتة، تحقيق مي أحمد يوسف، مقدمة التحقيق، ص٧٣)

١٠- وصفناه بأنه إنساني؛ لأنه يكشف عن الجوانب الإنسانية للنفس البشرية. فالأدب - دون شك- «يستخدم اللغة استخداما إبداعياً منظما، غايته التعبير الخاص عن الإنسان الاجتماعي والإنسان المطلق والبحث في جوهر الحياة».

انظر: (أحمد محمد عطية: أدب البحر. ص٥).

١١- من هذه الكتب: العفو والاعتذار لابن عمران العبدي، وإعتاب الكتاب لابن الأبار، وزهر الآداب للحصري، وغيرها كثير.

١٢- مثال على ذلك: محمد بن عبدالملك الزيات، وزير ا لمعتصم والواثق، انظر ص(١٠٣) من هذه الورقة.

١٣- سجن المُطْبِق: الطبق هو الغطاء.

المطبق: السجن تحت الأرض.

بنى المنصور سجن المطبق في المدينة المدورة، وقد ظل خلال عقود من الزمن من أهم سجون بغداد، وكان متين البناء قويّ الأساس. وصف يعقوب بن داود، وزير المهدي السجن المطبق، وقد حبسه فيه المهدي بأنه: «بئر بنيت عليها قبة، لا يصعد منه ولا يُنزل إليه». وكان يُدلّى إليه في كل يوم رغيف، وكوز ماء. وكان من ا لظلمة بحيث لا يفرق فيه بين الليل والنهار، بدليل أنه كان يؤذن بأوقات الصلاة. وقد بقي فيه ثلاث عشرة سنة، فلما أريد إخراجه دُلّي إليه حبل، شُدّ به وسطه، ثم أخرجوه، وإذا به قد عمي لطول المدة التي قضاها في الظلمة.

انظر القصة في: التنوخي: الفرج بعد الشدة ٢/٢٣٤، القصة رقم ٢٠٤. وقد حُبس في المطبق عدد كبير من السجناء، من بينهم وزراء وكتاب وخارجون على السلطة. وقد ضاق بهم في بعض الفترات على سعته، كما شهد حركات شغب، ومحاولات فرار قام بها السجناء.

أنظر أخبار تلك الحركات في تاريخ الطبري ٨/٦٠٢ أحداث سنة ٢١٠هـ.

وابن طيفور: كتاب بغداد ٩٩-١٠٠.

وقد حدد اليعقوبي (البلدان، ص٩) موقعه بأنه بين باب البصرة وباب الكوفة على سكة المطبق، ووصفه بالحبس الأعظم.

١٤- الجوسق: كلمة فارسية تعني القصر (انظر: الشابشتي: الديارات، ص٣٦٨) وهو قصر بناه المعتصم في سامراء، وعندما قبض على الأفشين بنى داخله حبساً مرتفعاً سماه: لؤلؤة الجوسق، عرف فيما بعد بسجن الأفشين (تاريخ الطبري ١٠٦/٩).

١٥- في زمن المعتصم بني حبس في بستان موسى في سامراء، وهو حبس كبير كانت له شهرة كالمطبق في بغداد. وقد سماه اليعقوبي بالحبس الكبير (البلدان ص٢٦).

١٦- وهي سجون كانت في قصور الخلفاء والأمراء ومتولي الشرطة.

وقد حبس إبراهيم بن المهدي -عم المأمون- في إحداها (عند أحمد بن خالد).

أنظر: التنوخي: الفرج بعد الشدة ١١٣/١.

وانظر: ابن طيفور: كتاب بغداد ص ١٠٢.

وحبس عبدالملك بن صالح -أيام الرشيد، عند الفضل بن الربيع (تاريخ الطبري ٣٠٢/٨) سنة ١٨٧ وحبس الأمين قبل مقتله في دار ابن صالح الكاتب.

انظر: تاريخ الطبري: ٤٨٦/٨.

١٧- انظر ص (٨٧) من هذه الورقة: رسالة طاهر بن الحسين يرد فيها على استرحام يحيى ابن حماد من سجنه.

١٨- أنظر: السجون، ص (٨٢) من هذه الورقة (حاشية رقم١٣).

١٩- مثال ذلك: أن أبا نواس بعث من سجنه مع مؤنس بن عمران أبياتاً إلى الفضل بن الربيع كانت سبباً في خروجه من الحبس. وهي:

ما من يدٍ في الناس واحدةٍ ... إلا أبو العباس مولاها

نامَ الثقاتُ على مضاجعِهم ... وسرى إلى نفسي فأحياها

قد كنت خفتك ثم أمنتني ... من أن أخافَك خوفَك اللهَ

فعفوت عني عفوَ مقتدرٍ ... وَجَبَتْ له نِعَمٌ فألفاها

أنظر: تاريخ الطبري ٥٢٥/٨.

٢٠- انظر: مناظرة المعتصم لتميم بن جميل الخارجي. ص (١٠٠-١٠١) من هذه الورقة.

٢١- بعض هؤلاء يودع في سجون الدور بعد العفو عنه، كما حصل لابراهيم بن المهدي أيام المأمون، ومحمد بن البعيث أيام المتوكل. وقد مات الأخير وهو في سجنه، بعد أن أثقل بالحديد.

٢٢- كما خلع المعتصم على تميم بن جميل. أنظر ص (١٠١) من هذه الورقة.

٢٣- مثال ذلك: الوزير، صاحب الخط المشهور أبو علي محمد بن مقلة، فقد حبسه الراضي بالله وأمر بقطع يمينه ومكث في الحبس مقطوع اليد. ومن شعره يشير إلى قطع يده.

ما ملِلْتُ الحياةَ ولكن توثَّقْتُ بأَيْمانِهم فَبَانَتْ يميني
ثم أحسنتُ ما استطعتُ بجَهدي حفظَ أرواحِهم فما حفِظوني
ليسَ بعدَ اليمينِ لذةُ عيشٍ يا حياتي بانَتْ يميني فبيني

انظر: (ابن الطقطقى: الفخري في الآداب السلطانية، ص ٢٤٠).

وقريب من هذا ما يروى، أنه كان لأحمد بن خصيب وكيل له في ضياعه، فرمي إليه بخيانة، فعزم على القبض عليه، والإساءة إليه، فهرب، فكتب إليه أحمد يؤنسه، ويحلف له على بطلان ما اتصل إليه وأمره بالرجوع، فكتب إليه:

أنا لكَ عبدٌ سامعٌ ومطيعُ وإني لما تهوى إليك سريعُ
ولكنّ لي كفّاً أعيش بفضلِها فما أشتري إلا بها وأبيع
أأجعلُها تحتَ الرحائِم أبتغي خلاصاً لها: إني إذا لصقيعُ

انظر: ابن الجوزي: الأذكياء، ص ٦١.

فنحن نستشف من الأبيات الخوف والفزع من السجن، وما يمكن أن يحدث فيه من تقطيع الأطراف!

٢٤- ابن الأبار: إعتاب الكتاب، ص ٤٤.

٢٥- كما حصل ليعقوب بن داود: انظر: حاشية رقم (٢)، ص (١١١) من هذه الورقة.

٢٦- وهذا ما حصل لإيتاخ أيام المتوكل انظر: تاريخ الطبري ٩:١٦٨، أحداث سنة ٢٣٥، ومحمّد بن البعيث ٩:١٧٠.

٢٧- أنظر تعريف المراسلات المكتوبة، ص (٨٢) من هذه الورقة.

٢٨- ابن الأبار: إعتاب الكتاب، ص ١٦٢-١٦٣.

الأزْل: الشدة

ورد ذكر عثمان بن عمارة في معرض ذكر أبيه في «الشعر والشعراء» لابن قتيبة، (ص ٥٤٢) ويصفه هناك بأنه كان عظيم القدر وأحد القواد.

وانظر أيضاً: النووي: اللباب في تهذيب اللغات ١:٣٥٩.

٢٩-انظر حاشية رقم (١)، ص (١١١) من هذه الورقة.

٣٠- حجر بن سليمان عاش في خلافة الرشيد، وله خبر مع يزيد بن مزيد الشيباني: انظر:

ص (٩٩) من هذه الورقة.

انظر: «أبو هلال العسكري» المُعرب عن المغرب، مخطوط، مكتبة عاشر أفندي باستنبول رقم أدب ٤٣٣، ورقة: ٣

٣١- ابن عمران العبدي: العفو والاعتذار، ٢١٤/١.

ابن الأبّار: إعتاب الكتاب، ٨٤.

٣٢- أنظر: ديوان النابغة ص ٧٧.

٣٣- ابن الأبار: إعتاب الكتاب، ص ٨٤.

٣٤- أنظر مثال ذلك، حاشية رقم (٥٧)، ص (١١٨) من هذه الورقة.

٣٥- سخط الرشيد على ابنه جعفر بن يحيى وقتله، ثم حبسه وحبس ابنه الفضل في دير القائم في الرقة، وصادر أموالهما وضياعهما.

٣٦- تعتقد الباحثة أن نسبة هذه الرسالة إلى يحيى بن خالد غير مؤكدة، مع أنه ليس لديها ما يدعم ذلك سوى الملاحظات التالية:

أولاً: لهجة الاستجداء التي تغلب على الرسالة، وهذا -باعتقاد الباحثة -ما لا يتلاءم وطبيعة الأنفة التي عرفت عن يحيى، ولا تطرد مع صفة الزكانة التي كان يتمتع بها. فكيف يتفق ذلك مع قوله: «جعلتُ الدنيا دون عرضي، فأبرها عندي ما صانه، وأهونها عندي ما شانه». (ابن حمدون: التذكرة الحمدونية مج ٢٧٣/٢، رقم ٧٢٥).

ثانيا: الفزع الذي يبرز بقوة في كلمات وسطور هذه الرسالة، وهذا أيضاً يخالف ما عرف عنه من قوة تحمل وتصبّر، حتى بعد أن جاءه خبر مقتل ابنه «جعفر» يقول أيوب بن هارون بن سليمان بن علي: فكتبتُ إلى يحيى أعزيه (أي: عن ابنه جعفر)، فكتب إليّ: أنا بقضاء الله راض، وبالخيار منه عالم، ولا يؤاخذ الله العباد إلا بذنوبهم، وما ربك بظلام للعبيد، وما يعفو الله أكثر ولله الحمد!. تاريخ الطبري ٣٠٠/٨، عام ١٨٧، ودفع إلى صديق له بعث له برسالة يسأله فيها عن حاله: «أفضل الناس حالاً في النعمة من استدام مقيمها بالشكر، واسترجع فائتها بالصبر» (الجهشياري: الوزراء والكتاب، ص٢٤٩).

وهو لم يرهب الخليفة حتى عندما بلغه مقتل ابنه، بل زاد أن قال: «هكذا يموت ابنه، وهكذا تذهب دوره». (تاريخ الطبري ٢٩٩/٨).

ثالثا: الشكوى بلغة مسجعة، مسهبة، وهذا لا يطرد مع ما عُرف عن ميل يحيى إلى الايجاز، وشغفه بالتوقيعات، «التي بلغت عنده أقصى الدرجات من الجزالة والفصاحة، ولقد

أثر عنه أنه قال: «ولو ا ستطعتم أن تكون كتبكم كالتوقيعات فافعلوا». (الصولي: أدب الكتاب، ص ١٣٤) يريد بذلك حض الكتاب على الإيجاز والاختصار.

رابعـــاً: عدم ورودها في تاريخ الطبري، الذي أورد أخبار يحيى بصورة مطولة، وكذلك أخبار مقتل ابنه وسجنه.

خامساً: كيف يُقّر يحيى بالذنب في هذه الرسالة، وهو الذي بعث إلى الرشيد من سجنه: «إن كان الذنب يا أمير المؤمنين خاصاً، فلا تعم بالعقوبة، فإن لي سلامة البريء، ومودّة الولي». (الجهشياري: الوزراء والكتاب، ص٢٥٣). نستطيع أن نزعم هنا، أن روح يحيى لتتطلق من خلال هذه الكلمات، بما عرف عنه من رزانة ووقار، وتعقل وتصبر.

ومهما يكن من أمر، فهذه الرسالة -إن كان كاتبها يحيى أو غيره- تبقى خير مثال على تصوير معاناة السجين النفسية والجسدية، وتغير الحال من قوة إلى ضعف.

٣٧- البيهقي: المحاسن والمساوىء، ص ٥٩٦-٥٩٧.

٣٨- بدرت من يحيى عبارات كثيرة يشكو فيها الأصدقاء. أنظر ص:(٩١) من هذه الورقة. وقيل له في الحبس، وقد احتاج إلى رقعة: «لو كتبت إلى فلان صديقك واستقرضته شيئاً، فقال: دعه يكن صديقاً»أنظر: الجهشياري: الوزراء والكتاب، ص ٢٤٨.

٣٩- أي: ابنه جعفر بن يحيى.

٤٠- البيهقي: المحاسن والمساوىء، ص ٥٩٧-٥٩٨، العقد الفريد ٦٨/٥، غرر الخصائص الواضحة ٤٠٦.

ما يصدق على رسالة يحيى بن خالد أعلاه -من حيث شكنا في نسبتها إليه- يصدق على قصيدته التي منها هذه الأبيات التي أوردها البيهقي وغيره في ذيل تلك الرسالة، وهي قصيدة استجداء عفو، وشكوى حال، وبكاء على ماض ذهب، وحسرة من حاضر مرير، كلّ ذلك بلهجة أكثر ميلاً إلى البكاء والعويل منها في الرسالة المذكورة.

٤١- ابن طيفور: تاريخ بغداد، ص ١٠١ -تاريخ الطبري: ٥٥٥/٨- الحصري: زهر الآداب ١٧٥/٢، ابن عبدربه: العقد الفريد، ٢٢٩/١-٢٣٠.

٤٢- بايعه أهل بغداد بالخلافة عام ٢٠١ هـ، وخلعوا المأمون. انظر تاريخ الطبري: ٥٥٥/٨ وانظر أخباره في: التنوخي: الفرج بعد الشدة ٣٢٩/٣-٣٥٢.

٤٣- ابن طيفور: كتاب بغداد، ص ١٠١ تاريخ الطبري، ٥٥٥/٨، الحصري: زهر الآداب، ٢٧٥/٢. ابن عبد ربه: العقد الفريد ٢٢٩/١-٢٣٠. ابن الجوزي: المصباح المضيء في خلافة المستضيء ٤٩٨/١-٤٩٩.

٤٤- طاهر بن الحسين، أحد قواد المأمون.

٤٥- ابن طيفور: كتاب بغداد، ص ٧١-٧٢.

٤٦- نفسه ص ٧٢.

٤٧- أحمد حسن الزيات: دفاع عن البلاغة، ص ٨١ وما بعدها.

٤٨- البيهقي: المحاسن والمساوىء، ص ٥٠١.

٤٩- وقد زار ابن مقلة بعد أن عاتبه. أنظر، ص (٨٩) من هذه الورقة. هو أبو الحسين علي بن محمد بن علي بن مقلة (ت عام ٣٢٧هـ)، انظر أخباره في :الوزراء والكتاب ١٣٥، تجارب الأمم ٢١/١، ٤٤، ١١٣، الفخري ٢٣٨-٢٤١، الوافي بالوفيات ١٠٩:٤-١١١، سير أعلام النبلاء ٢٢٤/١٥، والفرج بعد الشدة ٨٠:٣، ٨١.

٥٠- التنوخي: الفرج بعد الشدة ٣٢٢/١-٣٢٣.

أبو عبدالله زنجي، محمد بن اسماعيل الكاتب، الملقب زنجي، كان يكتب لابن الفرات قبل الوزارة.

انظر: الجهشياري: الوزراء والكتاب ٣٢٨، والتنوخي: الفرج بعد الشدة ٣٢٢/١.

٥١- التلدّد: الحيرة.

٥٢- عبدالله بن طاهر أحد قواد المأمون.

٥٣- التنوخي: الفرج بعد الشدة، ١٨٥/٢.

٥٤- السباعي السباعي بيومي: تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي، ص ١٦٨.

٥٥- ابن الأبّار: إعتاب الكتاب، ص ١٦١. وانظر ص (١٠٥) من هذه الورقة.

٥٦- أبعدت عن مورد الماء.

٥٧- ابن الأبّار: إعتاب الكتاب، ص ١٦٠.

الجهشياري: الوزراء. نصوص ضائعة ٧٩-٨٠ وهي هناك لإبراهيم الصولي، ياقوت الحموي: معجم الأدباء ٢٧٦/١-٢٧٧. وهي هناك لإبراهيم الصولي كذلك.

لا شك أن هذه الأبيات هي وثيقة تاريخية؛ بسبب إيراد صاحبها لأسماء أشخاص كانوا في السلطة آنذاك، وهم:

أبو عمران، موسى بن عبدالملك، وكان على ديوان الخراج أيام المتوكل.

عبيدالله بن يحيى بن خاقان: وزير المتوكل.

نجاح بن سلمة. كان على ديوان التوقيع والتتبّع على العمال.

وجد على ظهر الورقة التي كُتِبَتْ عليها هذه الأبيات البيتان التاليان بخط أحمد المدبر

أبـــا إسحـــاق إنْ تَكُـنِ الليـالي عَطَفْنَ عليك بالخَطْبِ الجسيم

فلمْ أرَ صرفَ هذا الدهر يجري بمكـــروهٍ علـــى غيـــر الكريـــم

٥٨- ابن الأبّار: إعتاب الكتاب، ص ١٦٤.

٥٩- التنوخي: الفرج بعد الشدة ٣٢٢/١-٣٢٣.

٦٠- مثلما حل بالبرامكة: فقد قتل الرشيد جعفر بن يحيى، وسجن أباه وأخّوته وعائلاتهم.

٦١- الجهشياري: الوزراء والكتاب: ص ٢٤٩. ومثل ذلك قوله، عندما قيل له في الحبس وقد احتاج إلى رقعة: «لو كتبت إلى فلان صديقك واستقرضته شيئاً. فقال: «دعه يكن صديقاً». وهناك رواية أخرى أن القول ورد في حق جعفر البرمكي، أنظر، الوزراء والكتاب، ٢٠٤، البيان والتبيين١/١٠٥.

انظر: الجهشياري: الوزراء والكتاب ٢٤٨، والجاجرمي: نكت الوزراء، ص ٣٠.

٦٢- الثعالبي: يتيمة الدهر ٢٦٩/٢.

٦٣- ابن الأبّار: إعتاب الكتاب، ص ١٦٢.

٦٤- رسائل الخوارزمي، ص ١٢٢.

٦٥- التنوخي: الفرج بعد الشدة، ٣٢٢/١-٣٢٣.

٦٦- أيام الخليفة الواثق. أنظر: تاريخ الطبري ١٢٥/٩، سنة ٢٢٩هـ. ونصوص ضائعة من كتاب الوزراء، ص ٦٤-٦٥.

٦٧- التنوخي: الفرج بعد الشدة، ١٨٧/١-١٨٨، الجهشياري: نصوص ضائعة من كتاب الوزراء ٦٨-٦٩.

٦٨- التنوخي: الفرج بعد الشدة ١٨٧/١-١٨٨، الجهشياري: نصوص ضائعة من كتاب الوزراء ٦٨-٦٩.

٦٩- التنوخي: الفرج بعد الشدة، ١٨٧/١-١٨٨، الجهشياري: نصوص ضائعة من كتاب الوزراء ٦٨-٦٩.

٧٠- الأصفهاني: الأغاني، ٢٤/٩.

٧١- نفسه ٢٤/٩.

ياقوت الحموي: معجم الأدباء ١٨٠-١٧١.

٧٢- الأصفهاني: الأغاني ٢٩/٩.

ياقوت الحموي: معجم الأدباء ١/١٧١.

٧٣- ياقوت الحموي: معجم الأدباء ١/١٧٠-١٧١.

٧٤- الثعالبي: يتيمة الدهر ، ٢/٢٦٩.

وفي تحفة الوزراء المنسوب للثعالبي: كتاب عامل مقبوض عليه إلى ابن مقلة، ص ١٥٣.

٧٥- أنظر تعريفه ص (٨٢) من هذه الورقة.

٧٦- تاريخ الطبري ٩/١١٢-١١٣.

٧٧- حذفنا هنا جزءاً من كلام الأفشين الذي يذكر فيه اتهام المعتصم له بممالأة القائد مكنجور -والي الأفشين على أذربيجان- عندما خرج على المعتصم محتجناً مال بابك الخرّمي. (تاريخ الطبري ٩/١٠٢).

٧٨- أنظر: ابن أبي عون: الأجوبة المسكتة، تحقيق مي أحمد يوسف، ص ٦٦ من مقدمة التحقيق.

٧٩- أنظر ص: (١١٨) من هذه الورقة، حاشية رقم (٥٧).

٨٠- أنظر أخبار خروجه على المعتصم، تاريخ الطبري ٩/١١-١٦.

٨١- أنظر محاكمة الأفشين في : تاريخ الطبري ٩/١١١-١١٥، تاريخ اليعقوبي ٢/٨٥٣، الأخبار الطوال ٤٠١.

٨٢- أنظر تعريف هذا القسم، ص (٨٣) من هذه الورقة.

٨٣- من هذه المناظرات والمحاورات تلك التي دارت بين المهدي وجعفر الأحمري. ويبدو من الحوار أن جعفراً هذا كان من الزنادقة. وفيما يلي نورد شطراً مِنْ هذه المناظرة، ثم نعقب ذلك تعليلا لرفضنا لها: (البيهقي: المحاسن والمساوىء، ص ٥٨١).

«لما خرج جعفر الأحمري من الحبس، وأدخل على المهدي في الحديد،

قال له: يا فاسق، أزلّك الشيطان وأغواك وفي غمرة الجهل أرْداك، وعن الهُدى بعدَ البصيرة أعماك، حتى تركتَ الطريقةَ ودخلتَ فيما لا أصلَ له ولا حقيقة، كيف رأيتَ الله كشف أمرَك وأعلنَ فسقَك، وأظهرَ ما كنتَ تخفي من سُقم سريرتك، وخبث نيتك فأورَدَك حوضَ منيّتك وذلك بما قدَّمَتْ يداك، وما الله بظلاّم للعبيدَ.

قال جعفر: لا والذي لم يَزلْ بعباده خبيراً، وبعثَ محمّداً (ص) بالحقِّ بشيراً، وطهّر أهلَه من دنس الرِّيَب تطهيراً، ووقفني بين يديك أسيراً، وجعلَك سلطاناً أميراً -ما خنتُ الإسلام نقيرا، ولا أضللْتُ الهدى منذ كنت صغيرا، فلا تقُدم عليّ الشبهة تقديراً بسعي ساعٍ يُجزى بسعيه سعيرا».

وهي مناظرة طويلة (ص ٥٨١-٥٨٥)، والوضع فيها واضح، وليس من شك في أنها وضعت في عصر متأخر، ونحن نرفضها للأسباب التالية:

أولاً : لغة الحوار وأسلوبه، فهما مما عرف في العصر العباسي بعد القرن الرابع؛ إذْ يكثر في هذه المناظرة الازدواج والسجع والتبسُّط والبديع مما لم يكنْ شائعاً في عصر المهدي. ونود أن نشير إلى أن المهدي نفسه لم يكن ممن يوشّون كلامهم بالبديع وزخرفه، بل كان أميل إلى الترسل والبساطة مع الجزالة، ودليل ذلك شغفه بالتوقيعات والإيجاز فيها (انظر: السباعي السباعي بيّومي تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي، ص (٢٣٢) في حين يبدو من خلال الحوار أنّ واضعه قد اخذته نشوةُ البديع فنسي نفسه، ولم يتذكر أن الترسُّل هو الذي كان شائعاً في عهد ا لمهدي وليس بديعه!

ثانياً: لا يُعقل أن يدور الحوار كله في موقف محاسبة، حيث الموت ينتظر في حدِّ سيف الجلاد، ويكون المتهم فيه على قدر من الارتياح والاسترخاء بحيث يتكلم بهذا الكلام المسجوع الموشّى، الذي تبدو عليه مظاهر الإعداد المسبق والجهد الكبير في ترتيب عباراته وسجعاته؟!

ثالثاً: ولا يعقل -كذلك- أن يدور حوارٌ بهذا الطول بين خليفة وزنديق، ويصبر عليه الخليفة كلّ هذا الصبر، بعد أن يتّهم الخليفة، أنه أخذه بسعايةِ ساعٍ، وأنه تقدَّم عليه بالشبهة! لهذا كله، نرفض هذه المناظرة جملة وتفصيلا.

٨٤- أبو حيّان التوحيدي: البصائر والذخائر، المجلد الثاني/٩٢ ص٣٠٥.

الجاحظ: البيان والتبيين، ٣٧٢/٤. وقد ورد فيهما النص دون إشارة إلى سبب الحبس.

٨٥- أحمد حسن الزيات، دفاع عن البلاغة، ص ٩٩.

٨٦- عبدالحميد بن ربعي كان قائداً من قواد الحركة العباسية في بداياتها. وكان ممن خرج على المنصور -بعد ذلك- وبايع عبدالله بن علي -- عم أبي جعفر- على الخلافة بعد وفاة أبي العباس السفاح عام ١٣٧هـ (تاريخ الطبري ٤٧٥/٨). وعبدالحميد هذا هو ابن عم قحطبة بن شبيب الذي حارب الأمويين واستولى على أمصار شاسعة من دولتهم للعباسيين، بل زاد أن قُتل وهو يعبر الفرات بعد أن هزم ابن هبيرة -قائد الأمويين- فكان أن حفَظَ المنصورُ لقحطبة تضحيته، فعفا عن ابن عمه عندما وقع في يده -في ذنبه ذاك- كرامةً لقحطبة.

ومع أن عبدالحميد يبدي ندما بعد الإقرار بالذنب، فإنه رفض عفو المنصور؛ لأن هذا العفو لم يكن خالصا له ولمآثره السابقة، بل كان لابن عمه! وهو -أي عبدالحميد- الذي كان قائدا من قواد العباسيين في بداية دعوتهم، وكان أبو مسلم الخراساني يعهد إليه

باللواء كثيراً! إلا أن المنصور لم يثُر، وأصرّ على عفوه، بل اتهم ابن ربعي بالجهل لعدم فهمه معنى تلك التضحية.

٨٧- ابن عبدربه: العقد الفريد ١٤٧/٢الجهشياري: الوزراء والكتاب ١٦٠.

التنوخي: الفرج بعد الشدة ١٠٤/٤.

الحصري: زهر الآداب ٣٢/٩-٣٣.

وانظر أخبار يعقوب بن داود ، ص (٨٢)، حاشية (١٣) من هذه الورقة.

أبو المعالي، المؤيد بن محمد الجاجرمي: نكت الوزراء، ص ٢٤.

٨٨- التنوخي: الفرج بعد الشدة ٣٢١/١، ابن الأبّار: إعتاب الكتاب ص ٧٥، أبو حيان التوحيدي: البصائر والذخائر، مجلد ٢/٢ ص٥٨٤، البيهقي: المحاسن والمساوىء، ٥٦٦-٥٦٧.

٨٩- ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥٥٧/١.

٩٠- تاريخ الطبري: ٣٠٨/٨، ابن عبدربه: العقد الفريد ٢٣٤/١، أبو حيان التوحيدي: البصائر ٤٨٨/٢/٢. الحصري: زهر الآداب ٧٩/٣، البيهقي: المحاسن والمساوىء ٥٧١.

٩١- ينسب أبو حيان التوحيدي هذا البيت في البصائر إلى علي بن أبي طالب، قاله وهو ينظر إلى قاتله عبدالرحمن بن ملجم. وفي الطبري البيت لعمرو بن معد يكرب.

٩٢- يذكر التوحيدي في البصائر (مج ٤٨٨/٢/٢) أن مقدمة هذا الحوار لعبدالحميد الكاتب. ويقول: «يشتمل هذا الكلام على عربية عُلْوية. وقد رُوي أوّلُ الكلام لعبدالحميد؛ لأنَّ فيه صناعةً باديةً لا تأتي عليه الخلافة». الشؤبوب: جمع شآبيب: الدفقة من المطر، هَمع: سال، العارض: السحاب المطل يعترض في الأفق. الوعيد والتوعد: التهديد، أورى: أخرج قدح نار، براجم: مفاصل الأصابع كلها. الغلاصم: جمع غلصمة وهي العَجَرُ التي على ملتقى اللّهاة والمرىء. الدّاهية، الشديدة والمصيبة. الفذ: الفرد.

٩٣- البيتان للبيد بن ربيعة، من قصيدة مطلعها:

إنَّ تقوى ربِّنا خيرُ نفل وبإذن الله ريثي وعَجَل

انظر شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري ص ١٧٣ (بيروت: بغداد د.ت).

٩٤- وهو : «يا أمير المؤمنين، ما قصدتُ تغيَر التوفيق من جهته، ولكنّي وَلّيْتُ أقواماً ثقل على أعناقهم الحقّ، فتضرّعوا في ميدان التعدّي، ورأوا أن المراغمة بترك العمارة أوْقع بأضرار السلطان، وأنوه بالشنعةِ، فلا جَرَمَ أن موجدةَ أمير المؤمنين قد أخذتْ لهم بالحظ الأوفر من مساءتي».

٩٥- أحمد حسن الزيات: دفاع عن البلاغة ص ١٠٨، وهو ما يسميه الزيات: التلاؤم.

٩٦- أنظر: ص (٨٤) من هذه الورقة.

٩٧- ابن الأبّار: إعتاب الكتاب، ص ٨٤-٨٥.

٩٨- أنظر ص (٨٥) من هذه الورقة.

٩٩- بدوي طبانة: البيان العربي، ص ٢٨٧.

١٠٠- الجاحظ: البيان والتبيين ١/١٣٩.

١٠١- انظر هذه المناظرة، في:

التنوخي: الفرج بعد الشدة، ٤/٨٩، والمستجاد من فعلات الأجواد، ص ١١٧، ابن عبدربه: العقد الفريد ١/٢٣٦، ابن عمران العبدي: العفو والاعتذار ٢/٥٦٢. الحصري: زهر الآداب ٣/٢١٠-٢١١.

١٠٢- بدوي طبانة: البيان العربي، ص ٣٢١.

١٠٣- يذكر الطبري (٩/١٠٧) أن ابن البعيث خرج على المتوكل عام ٢٣٥ هـ، وكان فارسيا يقول الشعر بالفارسية. وكان شجاعاً أديباً. ويزيد الطبري: بعد أن عفا عنه المتوكل -من الموت- صيّرفي عنقه مائة رطل من الحديد فلم يزل مكبوبا على وجهه حتى مات.

أنظر المناظرة في: تاريخ الطبري ٩/١٠٧، ابن عمران العبدي: العفو والاعتذار، ٢/٥٥٠-٥٥١.

المسعودي: مروج الذهب ٤/٧٢.

١٠٤- انظر تعريف هذا القسم ص (٨٣) من هذه الورقة.

١٠٥- لا سل آبر كرومبي: قواعد النقد الأدبي ص (٤٧-٤٨).

١٠٦- مثل ذلك. ما قاله له أبو نواس، بعد أن أطلق من حبسه الذي حبسه به الرشيد:

أهلـــي أتيتـــكمُ من القبـــر والنـــاس مُحتَبســـون للحشرِ

(تاريخ الطبري ٩/٥٢٤).

وقول ابراهيم بن العباس الصولي في حبسه:

كم تـرى يبقـى علـى ذا بدني قد بلـى من طولِ همـي وفني

أنـا فـي أسـرٍ وأسبابِ ردى وحديـــدٍ فـــادحٍ يكلمُـــني

١٠ابن الأبّار: إعتاب الكتاب ١٦٠).

وكقول سليمان بن وهب إلى أخيه الحسن من محبسه:

يا أخي لو ترى مكاني في الحبس وحالي وزفرتي وعويلي
وعثاري إنْ أردت قيامـــا وقعـودا في مُثْقلاَت الكبولِ
لرأيتَ الـذي يغمُّك فـي الأعداءِ أنْ يسلكوا جميعا سبيلي

التنوخي: الفرج بعد الشدة ١٨٧/١-١٨٨، الجهشياري: نصوص ضائعة من كتاب الوزراء ٦٨-٦٩.

١٠٧- الجهشياري. الوزراء ولكتاب، ٢٤٥.

١٠٨- البيهقي: المحاسن والمساوىء ٥٩٤. وقد وصفه إبراهيم بن المدبر قائلاً: (الرسالة العذراء، ص ٤٣) (وكان محمد من ألطف الناس ذهناً، وأرقهم طبعاً. وأصدقهم حسّاً، وأرشقهم قلما، وأملحهم إشارة. إذا قال أصاب، وإذا كتب أبلغ، وإذا أشعر أحسن، وإذا اختصر أغنى عن الإطالة).

١٠٩- في الديوان (ص٣٣٩) بيتان أولهما أول هذه الأبيات، وثانيهما.

لكن هو الدهر لقياه على حذرٍ فرُبَّ حارسِ نفسٍ تحت إشراك

١١٠- قيل: إنه عندما أمر المتوكل بإدخاله التنور، قال ابن الزيات للموكّل به يأذن له في دواةٍ وبطاقة ليكتبَ فيها ما يريد فاستأذن المتوكل في ذلك. فأذن له، فكتب هذين البيتين. وتشاغلَ المتوكل في ذلك اليوم فلم تصل الرقعة إليه. فلما كان الغد قرأها فأمر بإخراجه فوجده ميّتاً. وكان حبسه في ذلك التنور إلى أنْ مات أربعين يوما.

انظر: ابن عبدربه: العقد الفريد ٢٤٠/١، المسعودي: مروج الذهب ٣٩/٤.

١١١- البيهقي: المحاسن والمساوىء، ص ٥٩٦.

التكك: جمع (تكّة) ، وهي مايربط به السروال.

الحبك: الطرائق الحسنة.

الحالق: الجبل المرتفع لا يكون فيه نبات.

١١٢- الأصفهاني: الأغاني ١١٥/١٩.

١١٣- نفسه ١١٥/١٩.

١١٤- الأصفهاني: الأغاني ١١٥/١٩.

١١٥- انظر ص (٩٠) من هذه الورقة.